الفصل الأول

مقدمة

خلفية جغرافية وتاريخية

INTROUCTION
GEOGRAPHICAL AND HISTORICAL BACKGROUND

يتناول هذا الكتاب تطور نمط التجارة العالمية وبنيتها على مدار الألفية الماضية. على أننا حين نستخدم مصطلح "التجارة العالمية" world trade للعام الحالي أو أية فترة في الماضي القريب، تكون دلالتها واضحة لا لبس فيها. فالوحدات المكوِّنة للنظام، في هذه الحالة، تكون الدول القومية الفردية ذات السيادة، وتكون "التجارة العالمية" هي السلع والخدمات التي تتدفق بينها عبر الحدود الوطنية. ويمكن تصنيف الدول القومية الفردية بعدة طرق مختلفة، كأن يكون التصنيف جغرافياً على أساس القارة أو المنطقة المناخية، أو بحسب "مرحلة النمو" من حيث مستوى الدخل الفردي، أو الهبات النسبية للدول من حيث عوامل الإنتاج. ويمكننا بعد ذلك أن نربط أي تصنيف للسلع التي تدخل التجارة العالمية، مثل "المنتجات الأولية" أو "السلع المصنعة" أو السلع "كثيفة رأس المال" أو "كثيفة العمالة"، بالخصائص الجغرافية أو غيرها من خصائص الدول، وهذا هو ما نعنيه بـ"نمط التجارة العالمية وبنيتها".

لكننا حين نتحول إلى التطور طويل المدى "للتجارة العالمية ونمطها وبنيتها"، تظهر مجموعة كبيرة من المشكلات. فما نقاط البداية والنهاية التي يجب أن يُفحَص بينها هذا التطور؟ وماذا لو تغيرت الحدود السياسية، كما يحدث كثيراً، ما يجعل "الدول" الموجودة عند نقطة النهاية غير موجودة عند نقطة البداية، أو الموجودة في البداية غير موجودة عند نقطة النهاية؟ وكلما طال المدى الزمني المختار، زادت حدة هذه المشكلة، والألفية فترة طويلة جداً. قدم مورو Mauro حلاً جريئاً لهذه الصعوبة في مقالة مهمة اقترح فيها "نموذجاً عابراً للقارات" لدراسة التجارة العالمية إبان العصر الحديث المبكر(١) في شكل جدول أو مصفوفة مدخلات-مخرجات عابرة للمناطق، تسجل تدفقات السلع والمعادن النفيسة بين القارات على مر الزمن[١]. وذلك من شأنه أن يتغلب على مشكلة الحدود السياسية المتغيرة باستبدال الدولة القومية سريعة الزوال بالكيان الجغرافي الثابت، وهو القارة. وفي نهاية مقالته، ذكر مورو صراحة الأعمال القيّمة "للجنة العلمية الدولية فيما بين الحربين حول تاريخ الأسعار"[٢] التي جمعت بيانات دولية مقارنة للأسعار لعدة دول، وعبّر مورو عن أمله في أن يملأ هذا الجهد التعاوني مصفوفته التجارية للعصر الحديث المبكر والفترات الأخرى. ومع أن هذا الأمل لم يتحقق حتى الآن، فإننا نتبنى الإطار التنظيمي الأساسي لمورو على امتداد هذا الكتاب. صحيح أننا لن نتجاهل تدفقات السلع والخدمات داخل المناطق، لكن تركيزنا ينصب بالدرجة الأولى على التدفقات بين المناطق والقارات.

يلفت لويس وويغن Lewis and Wigen في عنوان عملهما المثير الانتباه إلى أن الفكرة التي تذهب إلى أن كون القارات تقسيمات ثابتة وواضحة لسطح الأرض، فكرة لا تخلو من الأسطورة[٣]. ويسكّ المؤلفان المصطلح المفيد "ما وراء الجغرافيا" metageography للإشارة إلى "مجموعة الأبنية المكانية التي ينظم الناس معرفتهم بالعالم

(١) يغطي العصر الحديث القرون من السادس عشر إلى العشرين، ويغطي العصر الحديث المبكر منها القرون من السادس عشر إلى الثامن عشر [المترجم].

من خلالها"[٤]. ومن أمثلة ما وراء الجغرافيا، إضافة إلى مثال القارات المألوف، تقسيم العالم إلى "شمال وجنوب" بين الدول المتقدمة والنامية، أو تصنيف العالم إلى العالم الأول والثاني والثالث[٢]، الذي كان شائعاً في أثناء الحرب الباردة. وفي حين تشكل أستراليا وأفريقيا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية والقارة القطبية الجنوبية كيانات مادية متمايزة ذات حدود طبيعية واضحة المعالم، فإن فصل أوروبا عن بقية الكتلة الأوراسية المتاخمة يعد أمراً تعسفياً وإشكالياً. فجبال الأورال التي تُذكَر كثيراً باعتبارها الفاصل بين القارتين، لم تكن أبداً حاجزاً مؤثراً، وثمة جدل منذ فترة طويلة حول انتماء روسيا إلى أوروبا أم آسيا أم كليهما. وفي أثناء كتابة هذا الكتاب كانت مسألة حدود أوروبا الشرقية أحد مصادر الصداع السياسي الرئيسة التي تواجه قادة أوروبا.

لكن ثمة تصنيفات لسطح الكرة الأرضية أساسية جداً لأغراضنا. فيقترح لويس وويغن مفهوم "المناطق العالمية"، وهي على وجه التحديد "تكتلات متعددة الدول، تُحدَد ليس بانفصالها المادي عن إحداها الأخرى (كما هي الحال مع القارات)، بل (نظريا) على أساس الروابط التاريخية والثقافية المهمة التي تجمعها"[٥]. فيما يلي نميّز بين سبع "مناطق عالمية" تغطي الكتلة الأوراسية وأفريقيا شمال الصحراء الكبرى، وهي:

١- أوروبا الغربية.

٢- أوروبا الشرقية.

٣-جنوب غرب آسيا وشمال أفريقيا.

٤-آسيا الوسطى أو الداخلية.

٥- جنوب آسيا.

---

(٢) ربما لا يعلم كثيرون أن ثمة عالماً ثانياً كان يوجد بين العالم الأول والعالم الثالث في أثناء الحرب الباردة. فبين العالم الأول المتمثل في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، والعالم الثالث المتمثل في الدول غير المنحازة لأي من الكتلتين الغربية والشرقية، ثمة عالم ثان ضم الدول الصناعية الاشتراكية بالكتلة الشرقية السابقة. وبعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، أخذ مصطلح "العالم الأول" يشير إلى الدول المتقدمة عموماً، في مقابل العالم الثالث الذي يشير إلى الدول النامية عموماً [المترجم].

٦- جنوب شرق آسيا.

٧- شرق آسيا.

تتحدد هذه المناطق وتنفصل عن بعضها بخطوط جغرافية، لكن الأهم من ذلك أنها تتحدد أيضاً بخطوط ثقافية وسياسية واجتماعية تعطي لكل منها قدراً من التماسك والوحدة وتميّزها عن المناطق الأخرى. وقد كان الاندماج الاقتصادي أكثر تقدماً داخل كل منطقة منه بين المناطق، وذلك بالدرجة الأولى نتيجة لهذه الانقسامات السياسية والثقافية. ويذهب ديفيد نورثروب David Northrup[٦] إلى أن نهاية الألفية الأولى كانت نقطة تحول بدأت فيها قوى التباعد الثقافي والسياسي بين مناطق العالم، مع تكيف السكان مع بيئاتهم المحلية، تتراجع أمام قوى تقارب مقابلة لا تقل قوة"[٣].

وقد قصرنا أنفسنا في البداية على هذا "المعمور الأفريقي-الأوراسي"، لأن تركيزنا ينصب على التجارة بين القارات والمناطق، قبل أن تنجح رحلات الاستكشاف الأوروبية إبان العقد الأخير من القرن الخامس عشر في دمج الأمريكتين وأستراليا في التجارة مع مناطق العالم الأخرى. كما أننا سندرس التدفقات التجارية بين مناطقنا السبع ومنطقة ثامنة، هي أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، في حال الضرورة، دون اعتبار أفريقيا جنوب الصحراء منطقة منفصلة. ولذلك نعترف بأن الفصول الأولى من كتابنا "متمركزة حول أوراسيا" وأن تلك نقيصة، وإن كانت نقيصة حتمية بسبب حدود معرفتنا.

لكن في المقابل، كانت مناطقنا السبع تضم الغالبية الساحقة من سكان العالم في العام ١٠٠٠، على الأقل إذا قبلنا الأرقام التقديرية، وإن كانت لا غنى عنها، الواردة في "أطلس تاريخ سكان العالم" لماكيفيدي وجونز McEvedy and Jones[٧]. وأعداد السكان

---

(٣) يرى فيرناندير أرمستو (Fernandez Armesto, 2006) أن قوى التباعد والتقارب تداخلت "ربما على مدى الأعوام العشرة آلاف الأخيرة أو نحوها" (ص ٢). ويقترح بنتلي (Bentley, 1996, p. 750) أيضاً تحقيباً للتاريخ العالمي "بفحص مشاركة شعوب العالم في عمليات تجاوز المجتمعات الفردية والمناطق الثقافية"، ويؤكد أن "التفاعلات الثقافية تقدمت وفقاً لدينامية مختلفة" إبان القرون التالية للعام ١٠٠٠ التي يصفها بأنها "عصر الإمبراطوريات البدوية العابرة للمناطق" (p. 766) الذي كان فاتحة للعصر الحديث.

التي يزوّدنا بها هذا العمل هي خمسة وعشرون مليوناً لأوروبا الغربية، وخمسة عشر مليوناً لأوروبا الشرقية، وثمانية وعشرون مليوناً للعالم الإسلامي، وتسعة ملايين لآسيا الوسطى، وتسعة وسبعون مليوناً لجنوب آسيا، وتسعة ملايين لجنوب شرق آسيا، وسبعة وستون مليوناً لشرق آسيا (تضم الصين وحدها ستين مليونا)، وبذلك يكون إجمالي عدد سكان العالم الأوراسي الذي نبدأ به دراستنا هو مائتان واثنان وثلاثون مليوناً، وفي المقابل كان إجمالي سكان العالم في العام ١٠٠٠ هو مائتان وخمسة وستون مليوناً، ما يجعل مناطقنا السبع تشكل ٩٠٪ تقريباً من سكان العالم في بداية الفترة. على أن قائمة "المناطق العالمية" التي نعمل عليها اتسعت وعدلت لاحقاً في ضوء تطور الاقتصاد العالمي بعد العقد الأخير من القرن الخامس عشر.

أوروبا الغربية[٤]

إننا نستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى أقصى الطرف الغربي لليابسة الأوراسية الذي يبدأ تقريباً عند الحدود الشرقية للدول القومية المعاصرة بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا السابقة، ويتضمن أيضاً كل الجزر البعيدة عن الشاطئ في المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط (انظر الشكل رقم ١.١). وقد اخترنا الحد الشرقي بحيث يعكس مدى التأثير الثقافي المرتبط بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية والأبجدية اللاتينية. وعلى ذلك، فإن الأمتين السلافيتين الغربيتين البولندية والتشيكية تندرجان في أوروبا الغربية، في حين لا يندرج فيها الروس السلافيون الشرقيون والصرب السلافيون الجنوبيون. ويندرج فيها أيضاً المجريون على أساس انتمائهم الديني إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، على الرغم من اختلافاتهم العرقية واللغوية عن بقية العالم المسيحي اللاتيني. فتقسيمنا لأوروبا الغربية والشرقية يقوم على الاختلاف بين

---

(٤) تتضمن مصادر هذا القسم Barraclough (1976), Bartlett (1993), Becher (2003), Boussard (1976), Collins (1991), McCormick (2001), McEvedy (1961), McKitterick (1995, parts I and II), Murphey (1970), O'Brien (2002), Renter (1999, parts I and II), and Riche (1993).

ميراث القرعين الغربي والشرقي للمسيحية ودوره في تشكيل المؤسسات السياسية والاجتماعية بالمنطقتين. ولغوياً، يتضمن تعريفنا لأوروبا الغربية كل اللغات الرومانسية[٥]، ما عدا اللغة الرومانية، وكل اللغات الجرمانية والسلتية والبولندية والتشيكية والسلوفاكية واللاتفية والليتوانية والباسكية والفنلندية والمجرية.

الشكل رقم (١,١) أوروبا الغربية.

(٥) اللغات الرومانسية Romance languages تعرف أيضاً باسم اللغات اللاتينية أو اللاتينية المُحْدثة، هي مجموعة اللغات المرتبطة المتولدة عن اللاتينية الدارجة وتشكل أحد فروع عائلة اللغات الهندوأوروبية، ومنها الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والرومانية وغيرها [المترجم].

جغرافياً، تتميّز هذه المنطقة بكثير من المزايا الطبيعية المعروفة، ربما كان أهمها ارتفاع نسبة الشريط الساحلي إلى مساحة اليابسة، وهي نسبة تفوق أية قارة أخرى، وفقاً لرودز مورفي Rhoads Murphey[٨]. وتتميّز أوروبا الغربية أيضاً بأدنى متوسط ارتفاع عن سطح البحر وأكبر نسبة سهول[٩]. وتتمتع بدرجة حرارة معتدلة نسبياً بالنسبة إلى خطوط العرض بسبب تأثير تيار الخليج. والسهل الأوروبي العظيم الذي يمتد بلا انقطاع من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال خصب ومثمر جداً منذ القدم. كما ساعدت الأنهار الكثيرة التي تصرف في بحر البلطيق وبحر الشمال والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط في خفض تكاليف النقل والربط بين مناطق الأسواق. وتوفر السلاسل الجبلية التي تشكل العمود الفقري المركزي لشبه الجزيرة، غابة ومرعى ثميناً للماشية في الوديان العالية، وتتخللها طرق وشعاب تربط شواطئ البحر الأبيض المتوسط في الجنوب بشواطئ البلطيق والأطلسي في الشمال. كما لاحظ إيريك جونز وجود عدد كاف من الحواجز الطبيعية في المنطقة- مثل جبال الألب وجبال البرانس والقنال الإنجليزي على سبيل المثال لا الحصر- تجعل توحيدها سياسياً غير ممكن من الناحية العسكرية[١٠]. وأخيراً، يلاحظ مورفي أن أوروبا الغربية تمثل "رأس المثلث الكبير الذي تشكله أوراسيا كلها" و"نقطة القُمْع البرية"[١١] التي يمكن أن تتدفق عبرها التأثيرات بكل أنواعها من الشرق إلى الغرب(٦).

تاريخياً، تشكلت المنطقة بفعل ميراث المؤسسات الثقافية والقانونية والإدارية للإمبراطورية الرومانية وعقيدة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وممارساتها، ليس في المناطق الجنوبية للحكم الروماني المباشر وحسب، بل أيضاً في منطقة القبائل الجرمانية الشمالية التي اجتاحت الإمبراطورية إبان القرنين الرابع والخامس وتشربت هذا

(٦) حول هذه النقطة الأخيرة، انظر Diamond (1997).

الميراث، وكذلك المناطق التي لم تكن يوماً جزءاً من الإمبراطورية، وبخاصة أيرلندا واسكتلندا واسكندينافيا. هذا الانصهار للميراث "الجنوبي" القادم من العصر القديم المتأخر مع الطاقة والمهارة الحربية للغزاة الشماليين أنتج في النهاية الإمبراطورية الكارولينجية[٧] التي امتدت من المحيط الأطلسي وجبال البرانس إلى جبال الألب ونهر الدانوب، أي معظم أوروبا الغربية القارية كما عرفّناها، فيما عدا شبه الجزيرة الأيبيرية والاسكندينافية. لكن هذه الوحدة السياسية التي بدأت بتتويج البابا للحاكم الفرنجي شارلمان إمبراطوراً رومانياً مقدساً في العام ٨٠٠ لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما تفككت الإمبراطورية إلى ممالك وإمارات متنافسة.

كان جد شارلمان هو شارل مارتل "رئيس القصر"[٨] الميروفنجي[٩] الذي هزم قوة غازية عربية قادمة من إسبانيا في معركة بواتييه[١٠] في العام ٧٣٢، وهي المعركة التي وضعت حداً لاختراق العرب المسلمين لأوروبا. وكان أبوه بيبين القصير Pepin the Short الذي خلع آخر الملوك الميروفنجيين في العام ٧٥١ وأخذ التاج الفرنجي لنفسه. وخلف شارلمان أباه ملكاً للفرنجة في العام ٧٦٨. ونفذ الحاكم الجديد سلسلة

---

(٧) تشير الإمبراطورية الكارولينجية إلى مملكة الفرنجة في أثناء حكم السلالة الكارولينجية في العصور الوسطى المبكرة، تأسست بتتويج البابا ليو الثالث لشارلمان أو شارل الأكبر إمبراطوراً رومانياً مقدساً في العام ٨٠٠، وانتهت بوفاة شارل البدين Charles the Fat في العام ٨٨٨، وتعتبر هذه الإمبراطورية سلف فرنسا وألمانيا الحديثتين [المترجم].

(٨) رئيس القصر mayor of the palace لقب أو منصب في القرون الوسطى المبكرة، مأخوذ من اللقب اللاتيني maior domus (كبير المنزل) كان يستخدم خصيصاً في الممالك الفرنجية في القرنين السابع والثامن الميلاديين لوصف كبار النبلاء والإقطاعيين [المترجم].

(٩) الميروفنجيون Merovingians هم السلالة التي حكمت إمبراطورية الفرنجة Francia لثلاثة قرون بداية من منتصف القرن الخامس، وتلتهم السلالة الكارولينجية [المترجم].

(١٠) وقعت المعركة الرئيسة المعروفة باسم بواتييه Poitiers، أو بلاط الشهداء كما تعرف في التاريخ الإسلامي، في العاشر من أكتوبر ٧٣٢، وانتصر فيها الفرنجة بقيادة شارل مارتل على المسلمين بقيادة عبدالرحمن الغافقي، وكانت أكبر هزيمة للمسلمين في فتح غرب أوروبا، وبسببها توقف هذا الفتح عند حدود الأندلس التاريخية [المترجم].

من الحملات العسكرية العدوانية ضد السكسونيين[١١] وأدخلهم بالقوة في المسيحية، وضد الأفار[١٢]، أولئك الغزاة البدو من آسيا الوسطى الذين أسسوا قاعدة لهم في أوروبا الوسطى. دمر شارلمان الأفار تماماً، ووزع كنوزهم الهائلة التي نهبوها سابقا على الكنيسة وعلى أتباعه. وبناءً على استغاثة من البابا لمساعدته ضد الملك اللومباردي[١٣] لشمال إيطاليا، عبر شارلمان جبال الألب وخلع الحاكم اللومباردي، وبعدها توّجه الحبر الممتن ملكاً للفرنجة واللومبارديين وإمبراطوراً رومانياً مقدساً. وبعد موت شارلمان في العام ٨١٤، حكم ابنه لويس الورع Louis the Pious الإمبراطورية فترة خلت من الاستقرار حتى وفاته في العام ٨٤٠ الذي انتقلت فيه الإمبراطورية إلى ابنه الأكبر لوثار Lothar، لكن أخوي الأخير: شارل الأصلع Charles the Bald في الغرب ولويس الجرماني Louis the German في الشرق، تحديا مطالبته بدولة موحدة. واتحد الأخوان الصغيران وألحقا بلوثار هزيمة حاسمة في معركة فونتنوي Fontenoy في العام ٨٤١ وأرغموه على تقسيم الإمبراطورية بين ثلاثتهم، مع احتفاظه باللقب الإمبراطوري.

وهذا التقسيم لإمبراطورية شارلمان إلى ثلاثة أجزاء عمودية من الشمال إلى الجنوب متاخمة لإحداها الأخرى بموجب معاهدة فيردان Treaty of Verdun في العام ٨٤٣، غالباً ما يعد بداية الدولتين القوميتين اللاحقتين في فرنسا إلى الغرب وفي ألمانيا

---

(١١) السكسونيون Saxons اتحاد من القبائل الجرمانية قطنت السهول الألمانية الشمالية، بعضها هاجر إلى بريطانيا في العصور الوسطى، وبعضها أغار على أوروبا الغربية وأسقط الإمبراطورية الرومانية [المترجم].

(١٢) الأفار Avars قبائل بدوية فروسية سيطرت على آسيا الوسطى في القرنين الرابع والخامس، وحين أجْلَتهم قبائل أقوى منهم، اندفعوا غرباً وأقاموا إمبراطورية شملت أجزاء كبيرة من أوروبا الوسطى والشرقية من أواخر القرن السادس حتى القرن التاسع [المترجم].

(١٣) اللومبارديون Lombards قبيلة جرمانية حكمت مملكة إيطاليا من العام ٥٥٨ إلى العام ٦٦٤ [المترجم].

إلى الشرق، وكان بمثابة "شهادة الميلاد لأوروبا الحديثة" كما يقول ريتش Riche بصياغته البليغة[١٢]. كان الشريط الأوسط الممتد من بحر الشمال إلى إيطاليا هو الإقليم الذي احتفظ للوثار باللقب الإمبراطوري. ثم انقرضت السلالة الكارولينجية في النهاية وحلت محلها في فرنسا السلالة الكابيتية(١٤) في العام ٩٨٧، وفي ألمانيا حل محلهم الأوتونيون(١٥) السكسونيون.

كانت إمبراطورية شارلمان في أوج اتساعها مهولة حقاً. فيقول بيتشر Becher إنها غطت مليون كيلو متر مربع(١٦)، وضمت مائة وثمانين أبرشية وسبعمائة دير وسبعمائة وخمسين ضيعة مَلكية ومائة وخمسين قصراً وزهاء سبعمائة منطقة إدارية[١٣]. وبالنظر إلى التقنية والموارد المتوفرة، كان من المستحيل فرض إدارة مركزية موحدة على هذه المملكة الشاسعة. ولم يكن بمقدور البلاط أن يبقى دائماً في العاصمة آخن(١٧)، فكان يتنقل من مكان لآخر على مدار العام. وكانت المناطق الإدارية يديرها كونتات، وأحياناً يشرف أدواق على مجموعات من هذه الكونتيات. وموورست السيطرة المركزية من خلال إرسال مبعوثين ملكيين، وجرت المراسلات الدبلوماسية والسجلات

---

(١٤) الكابيتيون Capetians أو آل فرنسا هم أكبر وأقدم سلالة حاكمة في أوروبا، تنتسب إلى الملك أوغو كابيه الفرنسي Hugh Capet of France، حكمت فروعها بلاداً أوروبية مختلفة، ومنها سلالة البوربون التي ينتمي إليها حالياً ملك إسبانيا ودوق لوكسمبورج الأكبر [المترجم].

(١٥) الأوتونيون Ottonians سلالة حاكمة جرمانية (٩١٩- ١٠٢٤) سميت على اسم الإمبراطور الأول فيها، وتسمى أيضاً آل سكسونيا، خلفت السلالة الكارولينجية في حكم ألمانيا والإمبراطورية الرومانية [المترجم].

(١٦) مع أن مساحة المليون كيلومتر مربع ليست ضخمة بالنسبة لمساحات الدول في عصرنا الحالي وحتى الدول الإسلامية والآسيوية في ذلك العصر، إلا أنها كانت شاسعة ومترامية الأطراف في عصر الكارولينجيين بالنظر إلى أن أوروبا الغربية كانت ممزقة بين مئات الإمارات والكونتيات والدوقيات الصغيرة المستقلة [المترجم].

(١٧) آخن Aachen منتجع قديم في شمال ولاية شمال الراين- ويستفاليا بألمانيا، كانت مقر الإقامة المفضل لشارلمان، ولاحقاً قصر تتويج ملوك ألمانيا [المترجم].

الإدارية تحت إشراف رجال الدين في المصلى الملكي. وبعد تقسيم الإمبراطورية بالقرب من نهاية القرن التاسع، بدا الأدواق والكونتات المختلفون، وحتى قادة محليون أدنى مستوى، في الاستقلال شيئاً فشيئاً في حكم مقاطعاتهم، ولم يعد يربط بينهم إلا الروابط الإقطاعية الأوسع. وقد كان هذا الميل ملحوظاً بدرجة أكبر في الأقسام الغربية للإمبراطورية التي تعرف الآن باسم فرنسا.

أما في القسم الشرقي أو الجرماني من الإمبراطورية، فقد تم الحفاظ على وحدة الدولة لمدى أطول كثيراً، إذ مات آخر ملوك الكارولينجيين في العام ٩١١ وحل محله في العام ٩١٨ هنري Henry دوق سكسونيا الذي أسس الدولة الأوتونية التي دامت حتى العام ١٠٢٤. وكانت المملكة الجرمانية في هذا العصر اتحاداً من بضعة دوقيات كبرى مثل سكسونيا وبافاريا وفرانكونيا Franconia وتورنغن Thuringia وشوابيا Swabia. وانحدرت الأسر الحاكمة الدوقية، كما يشير بيركلوف Barraclough، في معظمها من قادة الجيوش الحدودية الإمبراطورية الذين كانت تربطهم علاقات ولاء تقليدية بالسلطة المركزية[١٤]. وكانوا مستعدين لانتخاب أو ترشيح واحد منهم لكي يكون أعلى قليلاً من "الأول بين أنداد"[١٨] من أجل مصلحتهم الجماعية ضد الأعداء البرابرة وغيرهم. وفي أثناء العهد الطويل لأوتو الأكبر Otto the Great (٩٣٦-٩٧٣)، كانت المملكة الجرمانية بوضوح هي الدولة الأقوى في أوروبا كلها، وحققت انتصارات عسكرية على القبائل السلافية الشرقية، وبشكل خاص على المجريين (في معركة ليتشفيلد Lechfeld في العام ٩٥٥)، وهم قبائل ظلوا ينهبون كل الأراضي المستقرة حولهم على مدى عقود.

ومثلما فعل شارلمان، غزا أوتو إيطاليا لحماية البابا وتوّجه البابا إمبراطوراً رومانياً مقدساً في روما في العام ٩٦٢، وهو اللقب الذي استمر حتى ألغاه نابليون في

(١٨) في أوروبا العصور الوسطى، كان أمراء الإقطاع يتمتعون باستقلالية كبيرة عن السلطة المركزية، حتى لم يكن الملك يمثل بينهم إلا "الأول بين أنداد" كما في العبارة التقليدية المعبرة [المترجم].

العام ١٨٠٦. وعلى الرغم من المكانة التي كان هذا اللقب يعطيها لحامله، فإنه على أرض الواقع لم يتضمن شيئاً أكثر من إضافة شمال إيطاليا إلى الأراضي التي حكمها أوتو وخلفاؤه في ممتلكاتهم المحلية، فضلاً عن نفوذ كبير على الدول والمدن الأخرى في كل من ألمانيا وإيطاليا. كما أدخلهم في صراع طويل ومنهك مع البابوية على تقليد الأساقفة والقضايا الأخرى التي تتضمن "الفصل بين الكنيسة والدولة".

وعلى الرغم من سحر هذه الغزوات الإيطالية، فقد تمثلت الاندفاعة الأساسية للأوتونيين في ضغطهم المستمر وتوسعهم في السهول المفتوحة في الشرق على حساب القبائل السلافية الوثنية. وكما فعل الفرنجة مع السكسونيين الذين ينتمي إليهم الأوتونيون أنفسهم قبل قرنين، اتبع السكسونيون سياسة الغزو والتحويل الإجباري إلى المسيحية مع القبائل السلافية التي وجدوها في طريقهم. واتسعت حدود دولتهم شرقاً بتأسيس قلاع وحاميات على طول "الحدود"، وأيضاً من خلال المؤسسات الكنسية التي كان من أهمها مؤسسة ماغديبرغ[١٩]. وتسببت ثورة كبرى من جانب السلاف في العام ٩٨٣ في إيقاف التوسع مؤقتاً، لكنه استؤنف بعد جيل. وكان تأييد الكنيسة آلية سياسية رئيسة للأوتونيين، ما عزز سلطتهم، ليس على الحدود فقط، بل أيضاً داخل دوقياتهم ذاتها. وتوفي أوتو الثالث حفيد أوتو الأكبر في العام ١٠٠٢ في عمر الحادية والعشرين، قبل أن تتحقق خططه الطموحة لإعادة توحيد الإمبراطوريتين والكنيستين الشرقية والغربية بالزواج من أميرة بيزنطية. لكن بقيت قوة الأوتونيين وهيبتهم بفضل السلالة الصالية[٢٠] التالية التي بدأ حكمها في العام ١٠٢٥.

---

(١٩) ماغديبرغ Magdeburg عاصمة بوندزلند بألمانيا، تقع على نهر إلبه، كانت في العصور الوسطى من أهم المدن في أوروبا [المترجم].

(٢٠) الصاليون Salians جماعة فرعية من الفرنجة كانوا يعيشون في شمال الليمز Limes في منطقة شمال الراين، وكان منهم السلالة الميروفنجية التي فتحت بلاد الغال (فرنسا الحديثة تقريبا)، وكانوا أول القبائل الجرمانية التي استوطنت بشكل دائم في الأراضي الرومانية [المترجم].

حدث تطور مهم إبان القرن العاشر، نتج عن نجاح الأوتونيين، وهو انتشار المسيحية الكاثوليكية الرومانية بين الشعوب السلافية الغربية في بوهيميا وبولندا، وبين الغزاة المجريين البدو السابقين بعد هزيمتهم في ليتشفيلد مباشرة. وانتشرت المسيحية كذلك بين التشيكيين في بوهيميا الذين كانوا يقطنون وادي فلتافا Vltava، أحد روافد نهر إلبة، بفعل الضغط الجرماني إبان أوائل القرن العاشر، وفيما بعد أُنشِئت أسقفية في عاصمتهم براغ. ومنذ ذلك الحين أصبحت بوهيميا دوقية تابعة للإمبراطورية الجرمانية، وكوّنت روابط وثيقة مع بافاريا. ودخل الحاكم البولندي ميسكو الأول Mieszko the First من السلالة البياستية[٢١] في المسيحية، وفي نحو العام ٩٦٦ وضع أملاكه بدهاء تحت حماية الكرسي البابوي للحيلولة دون الهيمنة الجرمانية الكاملة على مملكته. ووسع خليفته بلوسلو شروبري Boleslaw Chrobry "الشجاع" المملكة في كل الاتجاهات على حساب الشعوب السلافية الأخرى، فيما حافظ على علاقات طيبة عموماً مع الإمبراطورية. وساعده أوتو الثالث في تأسيس عاصمته غنيزنو Gniezno أسقفية في العام ١٠٠٠. وشهد هذا العام نفسه أيضاً تتويج القديس المستقبلي ستيفن Stephen ملكاً للمجر بعد دخوله وأبيه غيزا Geza في المسيحية في العام ٩٩٥، وتلا ذلك تأسيس أسقفية في استرغوم Esztergom. وهكذا، فبحلول العام ١٠٠٠، كانت المسيحية الكاثوليكية الرومانية قد بلغت حدودها الشرقية، ولم يكن يتبقى غير البروسيين والبلطيين[٢٢] والفنلنديين الذين دخلوا المسيحية لاحقاً[٢٣].

---

(٢١) السلالة البياستية Piasts أول سلالة حاكمة لبولندا، أسسها الأمير ميسكو Mieszko بالقرن العاشر، وانتهى حكمها في بولندا في العام ١٣٧٠ بوفاة كازيمير الأكبر Casimir the Great، لكنها استمرت في دوقية سلسيا Silesia وماسوفيا Masovia حتى العام ١٦٧٥ [المترجم].

(٢٢) البلطيون Balts شعوب تتحدث اللغة البلطية، من العائلة اللغوية الهندوأوروبية، عاشت في المنطقة الواقعة شرق شبه جزيرة غوتلند في غرب موسكو وفي حوض نهري أوكا Oka والفولغا في الشرق [المترجم].

نتحول الآن إلى الشمال الغربي حيث الجزر البريطانية التي يفصلها بحر الشمال والقنال الإنجليزي عن اليابسة الأوروبية، ما جعلها تجتاز تطوراً مختلفاً تماماً، لكنه اتبع العمليات التاريخية الواسعة عينها. كانت إنجلترا قد أدمجت في الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول قبل الميلاد، وكان سور هادريان يفصلها عن شعب البكتيين[٢٤] في اسكتلندا. وشهد هذا البلد تأثيراً رومانياً مكثفاً تجلى في شبكة الطرق والمراكز الحضرية المزدهرة مثل لندن ويورك. لكن إبان أوائل القرن الخامس، سحبت روما فيالقها، فغزا الجزيرة الأنجلو والسكسونيون من الأراضي الجرمانية، واليوتيون[٢٥] من الأراضي الدنمركية. فاندفع البريطانيون المحليون إلى ويلز والمناطق الغربية الأخرى أو عبر القنال إلى بريتاني. ومع نهاية القرن السادس، كانت إنجلترا مقسمة فعلياً إلى نحو ست ممالك أنجلوسكسونية متنافسة.

ومع أن الغزاة كانوا وثنيين، فقد بقي الحضور المسيحي على الحافات الغربية للجزر البريطانية، وبخاصة في أيرلندا التي أدخلها في المسيحية مبشرون من بريطانيا الرومانية من أمثال القديس باتريك Patrick. وانقلبت الأدوار في العام ٥٦٣، حين وصل القديس الأيرلندي كولومبا Columba إلى جزيرة أيونا في اسكتلندا. ومن هذه القاعدة الكلتية[٢٦]، نجح المبشرون في إدخال اسكتلندا وشمال إنجلترا في المسيحية،

---

(٢٣) معنى ذلك أن انتشار المسيحية بين كثير من شعوب أوروبا، بما في ذلك أوروبا الغربية نفسها، حدث بعد نحو ألف عام من ميلاد المسيح، وبعد انتشار الإسلام بنحو ثلاثة قرون. وبالمثل لم تعتنق شعوب الملايو الإسلام إلا في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الملاديين، أي بعد أكثر من ستة قرون من بعثة النبي محمد [المترجم].

(٢٤) البكتيون Picts جماعة من السلتيين عاشت في اسكتلندا الشرقية والشمالية [المترجم].

(٢٥) اليوتيون Jutes أحد أقوى الشعوب الجرمانية في الليمز Limes، إلى جانب السكسونيين والأنجلو، يعتقد أن نشأتهم كانت في شبه جزيرة يوتلند Jutland أو غوتلند Gotland بشمال الدنمرك [المترجم].

(٢٦) الكلتيون أو السلتيون Celts جماعة عرقية لغوية من المجتمعات القبَلية بالعصر الحديدي والعصور الوسطى، عاشت في الحافة الكلتية على ساحل الأطلسي في غرب أوروبا [المترجم].

وأسسوا مراكز مثل ليندسفارن Lindisfarne في نورثمبريا في العام ٦٣٥. وهذا الدور البارز نسبياً لأيرلندا التي دخلت بعد ذلك في حالة من الركود، انعكس في كونها المنتج الأوروبي الأول للكتب بالنسبة إلى عدد سكانها إبان القرنين الثامن والتاسع[١٥]. وكان من الأحداث المهمة في إعادة تأسيس الصلات الإنجليزية مع أوروبا القارية قرار البابا جريجوري الأكبر في العام ٥٩٧ إرسال إرسالية تبشيرية برئاسة راهب يدعى أوغسطين لإعادة إنجلترا إلى العقيدة المسيحية. وكان من النجاحات المبكرة لهذه الإرسالية إدخال ملك كِنت الوثني في المسيحية، ربما بسبب زواجه من أميرة مسيحية فرنجية. وأصبح أوغسطين أول رئيس أساقفة لكانتربيري، وبحلول العام ٦٨٦ كانت كل الممالك الأنجلوسكسونية قد تحولت إلى المسيحية.

شهد القرن الثامن ازدهار هذه الممالك بفضل التوسع التجاري في مناطق بحر الشمال وبحر البلطيق. وتتضح الثروة التي كوّنها الملوك الأنجلوسكسونيون من التجارة والإتاوات ونهب في الكنوز الضخمة التي اِكتُشِفت في العام ١٩٣٩ في مقبرة السفن الشهيرة لأحد هؤلاء الملوك في ساتن هو[٢٧]. على أن المسيحية التي أعلنها هؤلاء الحكام جميعاً لم تردعهم عن شن حروب مستمرة ضد أحدهم الآخر، انتهت بإقرار "السيادة الميرسية"، بمعنى هيمنة مملكة ميرسيا Mercia الوسطى على كل الممالك الأخرى لمعظم القرن الثامن وأوائل القرن التاسع. واشتهر الملك أوفا Offa الذي حكم من العام ٧٥٧ إلى العام ٧٩٦ بحجم عملته ونوعيتها ونطاق الأشغال العامة التي نفذها، ومنها سياج أوفا Offa's Dyke الشهير الذي شيّده كحاجز ضد الويلزيين، والمعاهدة التجارية التي تفاوض عليها مع معاصره العظيم شارلمان الذي عامله كنِد.

---

(٢٧) ساتن هو Sutton Hoo موقع أثري بالقرب من وودبريدج Woodbridge بالريف الإنجليزي في سفوك Suffolk يضم مقابر من القرنين السادس والسابع، تضم إحداها مقبرة سفن تحوي ثروة من المشغولات الأنجلوسكسونية [المترجم].

ويتجلى مستوى الثقافة الذي بلغته إنجلترا الأنجلوسكسونية في هذه الفترة في "التاريخ الكنسي للشعب الإنجليزي" الذي كتبه الكاهن بيدي Venerable Bede نحو العام ٧٣٠، وفي الحياة المهنية لألكوين اليوركي Alcuin of York، وهو عالم دين عظيم آخر.

شهد القرن التاسع نهب إنجلترا وتخريبها على أيدي الفايكنغ الدنمركيين الذين بدأوا بمهاجمة الأديرة والبلدات الساحلية قبل أن يحتلوا أراضي واسعة في الجزء الشمالي الشرقي من البلاد الذي أصبح يعرف باسم "دينلو"[٢٨] وعاصمته يورك. واجه الفايكنغ مقاومة مستميتة من الإنجليز بقيادة الملك ألفريد عاهل ويسيكس Wessex (٨٧١-٨٩٩) الذي تمكن في النهاية من هزيمة الغزاة وحصرهم في دينلو بمعاهدة، وفي النهاية استرد خلفاؤه كل المناطق المفقودة، وبحلول العام ١٠٠٠ حكموا إنجلترا كاملة كدولة موحدة. وفي هذه الأثناء، كان الملك الدنمركي هارولد بلوتوث Harold Bluetooth قد دخل المسيحية في العام ٩٦٥، تلاه مباشرة أولاف تريغفاسون Olaf Tryggvason ملك النرويج، وأولوف سكوتكوننغ Olof Skotkonung ملك السويد. وعاد الدنمركيون إلى إنجلترا بقوة بعد ذلك، وحكم حفيد هارولد المدعو كانوت Canute إنجلترا من العام ١٠١٦ إلى العام ١٠٣٥.

إن ما حاولنا أن نبيّنه بهذه الخلاصة الموجزة هو انبثاق الكيان الذي نسميه أوروبا الغربية من انصهار ميراث الإمبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية مع ميراث القبائل الكلتية والجرمانية والسلافية. يتضح هذا الانصهار جلياً في حياة ألكوين المذكور آنفاً الذي تعلم في المدرسة الكاتدرائية في يورك وقابل شارلمان في بارما[٢٩] في العام ٧٨١، حيث كان الأخير في طريقه إلى روما. وغدا ألكوين المستشار

---

(٢٨) Danelaw بمعنى أرض القانون الدنمركي في إشارة إلى غلبة الفايكنغ الدنمركيين عليها [المترجم].

(٢٩) بارما Parma مدينة إيطالية في منطقة إميليا- رومانا كانت موطن إحدى أقدم الجامعات في العالم [المترجم].

الأقوى نفوذاً بين مستشاري شارلمان، بينما عمل رئيس دير القديس مارتن بمدينة تور[٣٠] على نشر نسخة موحدة من اللغة اللاتينية المكتوبة، هي الأبجدية الكارولينجية الصغيرة. وقد وفر ذلك وسيلة لنقل المعلومات وتخزينها عبر الإمبراطورية الكارولينجية، ما مكّن من نشر كل من المعرفة الدينية والعلمانية على نطاق واسع عبر أوروبا الغربية[١٦]. ووصلت العملية التي بدأت بدخول ملك الفرنجة كلوفيس Clovis في المسيحية نحو العام ٥٠٠ إلى نهايتها بدخول ملوك التشيك والبولنديين والمجريين والاسكندينافيين في المسيحية إبان القرن الأخير من الألفية الأولى.

أوروبا الشرقية[٣١]

تتطابق الحدود الغربية لهذه المنطقة، من أجل أغراضنا الحالية، تقريباً مع حدود الدول المعاصرة: الاتحاد الروسي وبيلاروسيا وأوكرانيا وشبه جزيرة البلقان (انظر الشكل رقم ١.٢). تمثلت المؤثرات الثقافية التكوينية الكبرى في هذه المنطقة في الإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية، ولذلك فإننا نعتبر كامل منطقة الدولة التركية الحالية التي شكّلت البؤرة المركزية للإمبراطورية وعاصمتها القسطنطينية (اسطنبول حاليا) جزءاً من هذه المنطقة. أما الحدود الشرقية لهذه المنطقة، مع منطقة آسيا الوسطى أو الداخلية المجاورة، وهي إحدى مناطقنا العالمية السبع، فقد طالها التغير لاحقاً مع تغير التخوم بين الزراعة المستقرة للروس من جانب ومنطقة الغابات لجماعات الصيد والجمع الشمالية وسهل البدو الرعويين على الجانب الآخر، التي

---

(٣٠) تور Tours مدينة في وسط فرنسا على الامتدادات الدنيا لنهر اللوار بين أورليانز والساحل الأطلسي [المترجم].

(٣١) تتضمن مصادر هذا القسم Christian (1998, chapters 13 and 14), Franklin and Shepard (1996), Hoetzsch (1966, chapter 1), McEvedy (1961), Obolensky (1957), O'Brien (2002), Ruiter (1999, part III), and Vernadsky (1948).

تغيرت مراراً وتكراراً مع تغير توازن القوة العسكرية. وأوروبا الشرقية منطقة قارية ضخمة جداً تضم درجات حرارة متباينة، وتتميّز بأنهار كبرى صالحة للملاحة جزئياً مثل الدون Don والدنيبر Dnieper والفولغا التي تُصرّف في البحر الأسود وبحر قزوين. وتتمثل السلاسل الجبلية الرئيسة غير جبال البلقان في جبال الأورال والقوقاز التي تعبر البرزخ بين هذه البحرين المغلقين.

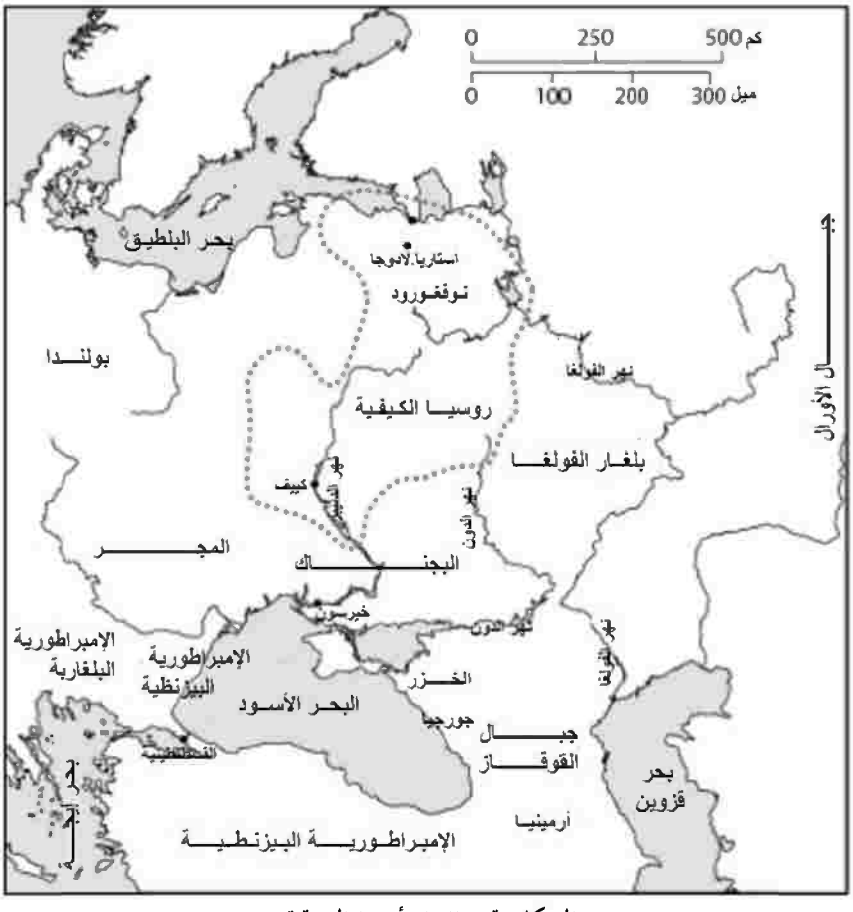

الشكل رقم (١,٢) أوروبا الشرقية.

كانت الدولة الروسية الأولى تسمى روسيا الكييفية Kievan Rus، وكانت عبارة عن اتحاد فضفاض عاصمته كييف. ينتمي الروس إلى الفايكنغ الاسكندينافيين الذين اندفعوا إلى الشرق وراء الغنائم والعمل مرتزقة في الجيوش والتجارة في الفراء والكهرمان والعبيد، في مقابل منتجات الترف والفضة من بيزنطة والعالم الإسلامي. وشكّلوا أرستقراطية محاربة صغيرة حكمت جماعات من الفلاحين السلافيين. وانفرد الروس، فيما بين كييف وإمارة نوفغورود Novgorod الشمالية، باحتكار مربح لطرق التجارة التي ربطت بحر البلطيق بالبحر الأسود وبحر قزوين على طول الأنهار والطرق الممتدة بينها. وكان على الروس دائماً أن ينازعوا شعوباً بدوية سهلية قوية مثل البلغار والبجناك[٣٢] والخزر[٣٣] على السيطرة على هذه الطرق التجارية، وكان عليهم أيضاً أن يحموا سكانهم الزراعيين المستقرين من هؤلاء النهّابين.

كان الروس والشعوب السلافية الأخرى في البداية برابرة على الحافات الشمالية للإمبراطورية البيزنطية. ووفقاً لمنطق التثاقف المألوف، تعرضت هذه الشعوب للتأثير الثقافي للحضارة الأكثر تقدماً. فدخل الصرب والبلغار والبلقانيون في المسيحية إبان القرنين الثامن والتاسع، وعُمِّد فلاديمير أمير روسيا الكييفية وتزوج شقيقة الإمبراطور البيزنطي في العام ٩٨٨، وهو تاريخ أهم كثيراً في التاريخ الروسي من العام ١٩١٧

(٣٢) البجناك Pechenegs شعب تركي شبه بدوي ظهر في سهول آسيا الوسطى بين نهر الفولغا الأدنى ونهر الدون وجبال الأورال يتحدث اللغة البجناكية التي تنتمي إلى عائلة اللغات التركية، حكموا في القرنين التاسع والعاشر معظم السهول الواقعة إلى جنوب غرب أوراسيا وشبه جزيرة القرم، دخل بعضهم في الإسلام [المترجم].

(٣٣) الخزر Khazars شعب تركي شبه بدوي، أنشأ واحدة من أكبر الدول في أوراسيا في العصور الوسطى تسمى "خزاريا"، عاصمتها أتل Atil، كانت من أهم شرايين التجارة في أوروبا الشمالية وجنوب غرب آسيا، وبسبب الوقوع بين الإمبراطوريتين العربية والبيزنطية، دخل بعضهم الإسلام والمسيحية، فيما اختار حكامهم اليهودية كي لا يقعوا تحت سيطرة إحدى القوتين المجاورتين [المترجم].

نفسه[٣٤]. ينتمي فلاديمير إلى السلالة الروريكية[٣٥]، من نسل الفايكنغ الأسطوريين المتخيلين بنوفغورود، مركز التجارة الأول للاسكندينافيين في شمال روسيا. كان الحاكم الأول لكييف يدعى أوليغ Oleg (٨٨٢-٩١٢)، وهو الذي حاصر بيزنطة في العام ٩٠٧ والعام ٩١١. وعلى الرغم من أنه لم يستول على المدينة، إلا أنه حصل على تنازلات تجارية كبيرة من الإمبراطورية. وكان خليفة أوليغ في حكم كييف هو الأمير إيغور Igor (٩١٢-٩٤٥)، أحد أفراد حاشيته. وعلى الرغم من اشتهاره بالأوبرا، فإن عهده لم ينتج أية إنجازات باقية. وكان ابنه سفياتوسلاف Svyatoslav رضيعاً، حين قُتِل إيغور في العام ٩٤٥ على أيدي رجال قبائل متمردين، وحكمت الدولة الأرملة الملكية أولغا Olga حتى بلغ الأمير الصغير الرشد في العام ٩٦٢. أثبتت أولغا أنها حاكمة حصيفة وقوية، فقمعت القبيلة المسؤولة عن قتل إيغور، وأصلحت نظام جمع الإتاوات مركزياً. واعتنقت المسيحية شخصياً في زيارة إلى القسطنطينية، لكنها أصرت على استقلال كنيسة كييف قبل أن تتبنى المسيحية ديناً وطنياً. لكن البيزنطيين رفضوا الاستجابة لمطلبها، ما دفعها للدخول في مفاوضات غير ناجحة مع أوتو الأكبر على اعتناق الكاثوليكية الرومانية بدلاً من عقيدة بيزنطة. كان سفياتوسلاف (٩٦٢-٩٧٢) وثنياً مخلصاً، وكان عهده عاصفة من النشاط العسكري في كل الاتجاهات. فحطم الإمبراطورية المزدهرة والمؤثرة لبدو السهل الخزريين، وتدخل بقوة في بلغاريا والبلقان في تحالفات مع البيزنطيين وضدهم. وفي النهاية أعد له البجناك كميناً وقتلوه، وهو في طريق عودته إلى كييف محملاً بالغنائم من فتوحاته البلقانية.

---

(٣٤) العام ١٩١٧ هو العام الذي وقعت فيه الثورة البلشفية الشيوعية التي أسست الاتحاد السوفيتي [المترجم].

(٣٥) تنسب السلالة الروريكية Rurikovichi إلى شيخ قبيلة فارانجية أو إفرنجية يدعى روريك Riurik استولى على لادوجا Ladoga في العام ٨٦٢ وأقام مستوطنة هولمغارد Holmgard بالقرب من نوفغورود، وأسس بذلك أسرة حكمت روسيا حتى القرن السابع عشر [المترجم]

وحين مات سفياتوسلاف، كان أبناؤه الثلاثة يعملون نواباً له في المدن والمناطق الكبرى. فتغلب فلاديمير حاكم نوفغورود على أخويه بمساعدة المرتزقة الفايكنغ والأتراك في الصراع التالي على السلطة. وواصل دعم أبيه للوثنية، على الرغم من أن المسيحية كانت تنتشر بين شعبه. وأدرك في النهاية أن الوثنية لا مستقبل لها، وفكر في الإسلام والكاثوليكية الرومانية إلى جانب المسيحية الأرثوذكسية كخيارات محتملة للدين الرسمي المستقبلي. وحُسِمت المسألة أخيراً حين طلب الإمبراطور البيزنطي الجديد باسيل الثاني Basil II (٩٧٦-١٠٢٥) المساعدة العسكرية من فلاديمير لقمع ثورة داخلية، في مقابل زواج الأمير من أنا Anna أخت الإمبراطور، ولذلك وافق فلاديمير على تعميده. وفي سوق الزواج الملكي إبان القرن العاشر، كانت أخت الإمبراطور البيزنطي صيداً ثميناً. حتى إن الإمبراطور رفض طلب أوتو الأكبر لأنا عروساً لابنه الذي عُرِف لاحقاً باسم أوتو الثاني الذي اضطر إلى قبول أميرة أخرى أبعد من أنا في سلسلة النسب إلى الإمبراطور. أرسل فلاديمير كتيبة من الفايكنغ إلى القسطنطينية، نجحت في قمع التمرد فوراً. وبعدها حاول باسيل أن ينكث بعهده، ولم يرده عن ذلك إلا حصار فلاديمير لميناء خيرسون Kherson الإستراتيجي في القرم، فأرسل الإمبراطور العروس الملكي في مقابل دخول فلاديمير في المسيحية وإعادة الميناء، وبعدها أعاد فلاديمير خيرسون "هدية من العريس". كان اعتناق فلاديمير للمسيحية يعني انتشارها بين أمة الروس برمتها، وكان فاتحة لسلسلة من الأحداث المشابهة في اسكندينافيا وبوهيميا وبولندا والمجر، كانت من أبرز الملامح في التاريخ الأوروبي إبان أواخر القرن العاشر. وبدأ فلاديمير برنامجاً واسعاً لبناء الكنائس والأعمال الخيرية والارتقاء بالتعليم، ومات في العام ١٠١٥ وطُوّب قديساً إبان القرن الثالث عشر.

كان من الدول المبكرة القوية الأخرى في أوروبا الشرقية الإمبراطورية البلغارية التي شكّلت تحدياً جدياً لبيزنطة نفسها، على الرغم من أن تنظيم كنيستها وثقافتها الأدبية كانا مأخوذين بالكامل من بيزنطة. كان البلغار شعباً تركياً، استقر فرع منه في حوض الدانوب الأدنى وسيطر على الفلاحين السلافيين المحليين. وبقيادة الخان الوثني كروم Krum، هزموا جيشاً بيزنطياً في العام ٨١١، وقتلوا الإمبراطور وصنعوا من جمجمته كأساً للشراب. وغزا كروم وخلفاؤه معظم البلقان، ولم يوقفهم غرباً غير الجرمان والصرب. ومع ذلك أثبتت الجاذبية الثقافية والنفوذ السياسي والعسكري لبيزنطة أنهما قويان جداً، إذ اعتنق البلغار المسيحية في عهد بوريس الأول Boris I (٨٥٢-٨٩٨، توفي العام ٩٠٧) في العام ٨٦٩. وكان من النتائج التالية الرئيسة لهذا القرار، تبني بلغاريا للأبجدية السيريلية والقداس السلافي الذي ابتكره الراهبان سيريل Cyril وميثوديوس Methodius في الأصل لدولة مورافيا التشيكية، لكنها رفضته لصالح القداس اللاتيني. كانت خسارة مورافيا مكسباً لبلغاريا وكل الكنائس الأرثوذكسية اليونانية السلافية، إذ أعطتهم الاستقلال اللغوي عن اليونانية البيزنطية، وتلك ميّزة سياسية لا يستهان بها. وشكّلت تلك الأبجدية السيريلية التي تستخدمها كل الشعوب السلافية الأرثوذكسية، في مقابل اللغة اللاتينية لأبناء عمومتهم الغربيين، الاختلاف الثقافي بينهم الذي استمر إلى يومنا هذا. وعلى الرغم من اعتناق الجميع المسيحية، فقد كان النزاع في البلقان وجنوب روسيا حاداً، ليس بين المسيحيين الأرثوذكس أنفسهم وحسب، بل أيضاً مع الجرمان والبولنديين في الشمال والغرب، ومع الشعوب البدوية الوثنية والمسلمة في الشرق.

فتح بوريس الأول مقدونيا وحصل على طريق إلى بحر إيجة في غرب شبه جزيرة البلقان. وحكم ابنه سيميون الأول Simeon I من العام ٨٩٣ إلى العام ٩٢٧ ويعتبر

عهده أوج تاريخ البلاد. وأعلن نفسه قيصر البلغار والرومان، أي نِداً للإمبراطور البيزنطي. وحاصر القسطنطينية مرات عدة، لكنه لم ينجح أبدا في فتح المدينة العظيمة. وتمكن البيزنطيون من كبح سيميون وخلفائه بتحريض غارات من المجريين والبجناك والروس على الأراضي البلغارية. وألحق باسيل الثاني الإمبراطور الذي أدخل فلاديمير في المسيحية هزيمة ساحقة بالبلغار في العام ١٠١٨ وأعطى نفسه لقب "قاتل البلغار".

وهكذا، فبحلول العام ١٠٠٠، كانت الإمبراطورية البيزنطية قد أسست الدول التي خلفتها في أوروبا الشرقية في روسيا وبلغاريا. وكانت صربيا قد دخلت الحظيرة إبان القرن التاسع، بينما دخلت كرواتيا المجاورة في فلك روما، وهو خط التقسيم الذي استمر إلى يومنا هذا. نتحول الآن إلى ظهور ما يمكن أن نعتبرها أيضاً دولة وريثة أخرى للإمبراطورية البيزنطية، وإن كانت من نوع مختلف تماماً، وهي الخلافة العربية.

شمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا: العالم الإسلامي[٣٦]

هذه هي المنطقة المعروفة اليوم عموماً باسم الشرق الأوسط (انظر الشكل رقم ١,٣). وهي القلب أو المركز الكلاسيكي للعالم الإسلامي، وهو الاسم الذي سنستخدمه أيضاً حين لا يكون هناك مجال للبس. وتضم الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط وما يسمى بالهلال الخصيب لوادي النيل والمشرق وبلاد ما بين النهرين وشبه الجزيرة العربية والهضبة الإيرانية وأفغانستان. ونسبة كبيرة من مساحة أرض هذه المنطقة قاحلة أو شبه قاحلة، وأمطارها نادرة وغير منتظمة. وكانت وديان النيل ودجلة والفرات، في المقابل، أراضي زراعية خصبة ومنتجة لآلاف السنين. وكانت الصحارى القاحلة غير مأهولة، بينما كانت المنطقة شبه الصحراوية

(٣٦) تتضمن مصادر هذا القسم Fletcher (1992), Hourani (1991, part 1), Kennedy (1986), Lewis (1993), McEvedy (1961), O'Brien (2002), de Planhol (1959), Robinson (1996), and Shaban (1976, 1978).

تعيل نمط الحياة البدوية الرعوية لآلاف السنين أيضاً. وكانت أهم ثروة طبيعية الأهم في هذه المنطقة تتمثل في موقعها بالنسبة لمناطق العالم الأخرى، وبخاصة فيما قبل رحلات الاستكشاف الأوروبية. فكانت أوروبا تقع وراء البحر الأبيض المتوسط على مسافة قصيرة جداً من مضيق جبل طارق، وكانت إيران وأفغانستان على اتصال مباشر مع آسيا الوسطى، وبالتالي طرق التجارة البرية إلى الصين، وكان الوصول إلى الهند ممكناً بحراً، وكذلك براً على طول سواحل مكران وبلوشستان إلى فم نهر السند وعبر ممر خيبر، وكانت التوابل القادمة من الأرخبيل الإندونيسي والمنتجات الصينية تأتي إلى الخليج العربي والبحر الأحمر، وإما تستهلك هناك أو تنقل إلى أوروبا بغرض الربح، وكان يجري تبادل الذهب القادم من غرب أفريقيا بالملح في تجارة القوافل بأفريقيا جنوب الصحراء، ليوزع الذهب بعد ذلك في العالم الإسلامي أو يصدَّر إلى أوروبا أو آسيا الوسطى.

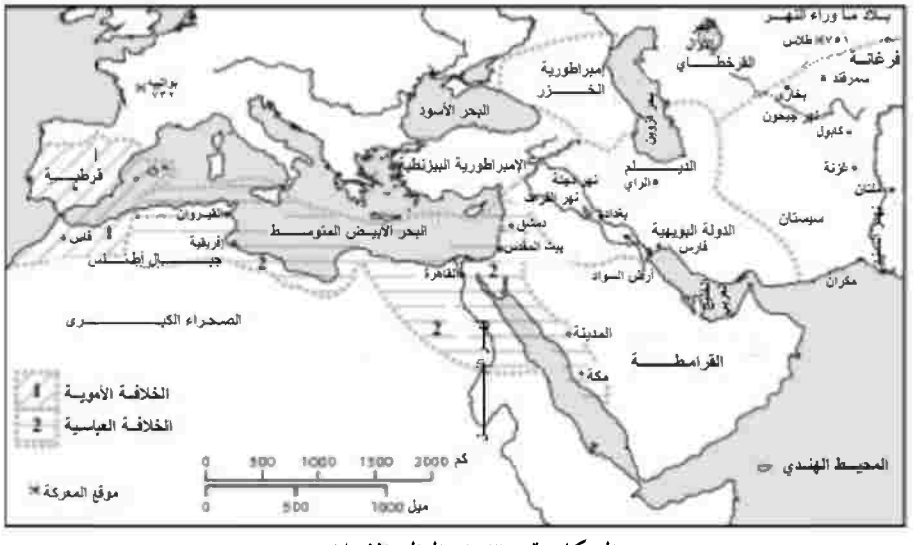

الشكل رقم (١,٣) العالم الإسلامي.

كان ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية والفتح العربي السريع اللاحق لكامل المنطقة إبان القرن السابع بالتأكيد أحد أهم الأحداث وأكثرها تأثيراً في التاريخ العالمي. فقد عمل الدين الإسلامي واللغة العربية التي ارتبطت به كقوة ثقافية توحيدية فعالة من ساحل المحيط الأطلسي إلى جبال الهيمالايا. وتبنت الدول الإسلامية الجديدة تراث العصر القديم الكلاسيكي[٣٧] والأساليب البيزنطية والساسانية في الإدارة وأصول الحكم. كما أدى انصهار الثقافة العربية والفارسية إلى تشكيل توليفة جديدة إبداعية أثرت على مناحي الحياة كافة. وأُدخِلت محاصيل وأفكار جديدة من الهند وجنوب شرق آسيا. وكما مَدَّنت المسيحية القبائل الجرمانية والسلافية أو أدخلتها في المدنية، مدَّن الإسلام القبائل التركية بآسيا الوسطى التي تولت العمل العسكري في الدول الإسلامية.

ترسخت الفتوحات المبكرة وتوسعت في عهد الخلافة الأموية التي حكمت من دمشق، عاصمة العالم الإسلامي من العام ٦٦١ إلى العام ٧٥٠. ودمشق واحدة من أقدم مدن العالم، وكانت عاصمة إقليمية لأغلب الإمبراطوريات القديمة حتى زمن البيزنطيين، وهي تقع إلى الشرق من جبل قاسيون الذي تنزل منه الجداول التي روّت واحة الغوطة العشبية التي كانت بستان الخضروات للمدينة، وضمت تشكيلة ثرية من الأشجار المثمرة، وبالقرب منها وجد سهل، وفر المحاصيل الغذائية اللازمة لإطعام دمشق. وجذبت المدينة انتباه الأمويين لأسباب إستراتيجية واقتصادية أيضاً، إذ إنها كانت تقع على تقاطع طرق تجارة القوافل. حصّن العرب القلعة القديمة وشيّدوا الجامع

(٣٧) يشير مصطلح العصور القديمة الكلاسيكية classical antiquity إلى اليونان وروما القديمتين والتاريخ الثقافي الذي تمركز حول البحر الأبيض المتوسط وتكون من هاتين الحضارتين المتشابكتين اللتين تسميان معاً العالم الإغريقي- الروماني the Greco-Roman world، وتحديداً يشير المصطلح في تحقيب التاريخ اليوناني إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاديين، وتحديداً من سقوط الاستبداد الأثيني في العام ٥١٠ قبل الميلاد حتى وفاة الإسكندر الأكبر في العام ٣٢٣ قبل الميلاد [المترجم].

الكبير، ذلك العمل المعماري الرائع في موقع الكاتدرائية المسيحية. ويقدّر أشتور Ashtor عدد السكان العرب في سوريا في العام ٧٢٠ بنحو مائتي ألف شخص، من إجمالي نحو أربعة ملايين، أي زهاء ٥٪[١٧]. ويقال إن عدد سكان دمشق كان مئة ألف شخص في العام ١٣٥٠، حين "كانت أيام عزها قد ولت"[١٨]. وشهدت المدينة أيام عزها في عهد عبدالملك وخليفتيه الوليد (٧٠٥-٧١١) وهشام (٧٢٤-٧٤٣)، وفي عهودهم أصبحت الإدارة أكثر مركزية، وكذلك عملية سكّ العملة، وأصبحت اللغة العربية لغة الإدارة المدنية.

وعلى الرغم من النزاعات الداخلية الحادة، ازدهر العالم الإسلامي اقتصادياً، مع إدخال محاصيل جديدة متنوعة من الشرق، ما أدى إلى نمو مدن جديدة كبيرة، من قرطبة في إسبانيا، إلى القيروان في تونس، والقاهرة في مصر، بينما واصلت دمشق توسعها. وتقدمت الجيوش العربية عبر نهر جيحون إلى آسيا الوسطى، وفتحت بخارى وسمرقند في العام ٧١٠، وهزمت قوة صينية تابعة لإمبراطورية تانغ في معركة نهر طلاس في العام ٧٥١، ودخلت وادي فرغانة، وهي أبعد نقطة لتقدمهم شرقاً. وفتح العرب أيضاً إقليم السند الهندي في أوائل القرن الثامن، واستولوا على ملتان Multan في البنجاب في العام ٧١١. وأضاف العرب هذه المناطق جميعها إلى فتوحهم الأولى لنحو ثلثي الإمبراطورية البيزنطية وكامل أراضي الإمبراطورية الساسانية الفارسية. كما سيطر العرب أيضاً على النصف الجنوبي للبرزخ الواصل بين البحر الأسود وبحر قزوين، بما في ذلك مدينتي تبليسي Tiflis ودربند Derbent. وبذلك امتدت الإمبراطورية العربية في العام ٧٥٠ من أغادير على ساحل المحيط الأطلسي إلى نهر جيحون في آسيا الوسطى ونهر السند في الهند.

كان من المستحيل عملياً تحقيق أي نوع من الإدارة الموحدة لهذه الدولة الشاسعة. لكن كيف مورست السيطرة على الأراضي المفتوحة؟ ربما حدث ذلك من

خلال انتشار الحكام العرب بين السكان المحليين، ما مكّن كل منهم من انتزاع الضرائب لصيانة مقاطعته وتطويرها. ولو أتبع هذا المسار، لكانت النخبة العربية قد امتصت في النهاية اجتماعياً وثقافياً في الجماعات المتنوعة التي حكموها، تماماً كما حدث مع طبقة الفايكنغ الحاكمة في نورمندي أو روسيا. لكن الخليفة الثاني عمر (٦٣٤-٦٤٤) اتخذ القرار البديل بعيد المدى بتركيز العرب في مدن الحاميات، حيث كانوا ينفقون على أنفسهم من الرواتب النقدية أو العطاء الذي كان يُدفَع لهم من بيت المال الذي كانت كل الضرائب المحصلة من الشعوب الخاضعة تودع فيه. ونظراً لأن المسلمين كانوا يُعْفَوْن من معظم الضرائب، فقد أوجد ذلك لدى الفاتحين العرب موقفاً متناقضاً من اعتناق الشعوب المغلوبة لدينهم الإسلام[٣٨]. ولذلك كانت الجماعات المحلية حرة نسبياً في إدارة شؤونها الخاصة بلا تدخل بيروقراطي، طبعاً شريطة أن يدفعوا الجزية (ضريبة الرأس) المفروضة على غير المسلمين فقط والخراج (ضريبة الأرض). وقد نجح هذا النظام، لأن الأراضي البيزنطية والساسانية السابقة كانت قد قدّرت نقدياً في عهد حكامها السابقين. وثمة ميّزة أساسية أخرى هي أن العرب بتجمعهم معاً في الحاميات، حافظوا على لغتهم وثقافتهم التي اكتسبتها الشعوب الخاضعة تدريجياً. فيما تمثل العيب في ذلك في تعرض النخبة العربية الحاكمة الجديدة لخطر التحول إلى الاعتماد على الريع، إلا في حالة استدعائهم لإخماد الثورات الداخلية أو قتال الغزاة الخارجيين. وفي النهاية تحولت هذه الوظيفة العسكرية الحاسمة على نحو متزايد إلى العبيد العسكريين المتخصصين من الأتراك أو الأصول الأجنبية الأخرى، ما خلّف نتائج سلبية على الخلافة العربية.

(٣٨) بمعنى أن الحكام العرب لم يكونوا يرحبون كثيراً باعتناق الشعوب المغلوبة للإسلام، أو على الأقل لم يدفعوهم إلى ذلك دفعاً، لأن ذلك كان يعني سقوط الجزية عنهم. وفي ذلك رد قاطع على دعاة فكرة أن الإسلام انتشر بحد السيف [المترجم].

وفي العام ٧٥٠، أطاح العباسيون بخلافة الأمويين وغيّروا الطابع القبَلي العربي للنظام بالاقتراب من النموذج الفارسي الأكثر مركزية وبيروقراطية. وأفسح العباسيون أيضاً مجالاً أكبر للمسلمين من غير العرب المعروفين باسم الموالي الذين كانوا ممثلين بقوة في الطبقات التجارية والحرفية الحضرية. وحدث تسارع ملحوظ في النشاط الاقتصادي نتيجة لتراجع الاعتماد على الغزو والعمليات العسكرية. وأسس الخليفة العباسي الثاني المنصور (٧٥٤-٧٧٥) مدينة بغداد لتكون عاصمة للدولة الجديدة. وكان المنصور وابنه المهدي (٧٧٥-٧٨٥) وحفيده هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) جميعاً حكاماً بارعين، قام على مساعدتهم كُتّاب أكفاء، من أبرزهم أسرة البرامكة الإيرانية. فصل هؤلاء الحكام بحزم بين المؤسسات المدنية والعسكرية. وكانت المنطقة الخصبة المحيطة ببغداد المعروفة باسم أرض السواد تدّر عائدات كبيرة على أساس الضرائب المباشرة على قيمة الناتج الزراعي بنسب تتراوح من الثلث إلى النصف، وكانت مصر هي الأخرى مورداً رئيساً. مكّنت هذه العائدات الدولة من الاحتفاظ بقوات عسكرية كافية للحفاظ على النظام الداخلي وقتال البيزنطيين. وأدى نجاح البرامكة في ملء خزائن الدولة، فضلاً عن البذخ في طريقة حياتهم، إلى إشعال سخط كثير من أصحاب المصالح التقليديين، ما أدى إلى التضحية بالأسرة وإعدام رأسها بقسوة بأمر هارون الرشيد لاسترضاء المعارضة.

أظلم الأفق بأزمة الخلافة بعد موت هارون في العام ٨٠٩. فقد خلفه ابنه الأمين، على أن يخلف الأخير أخوه الأصغر قليلاً المأمون الذي عُيِّن حاكماً للمنطقة الشرقية لخراسان ومقاطعات إيرانية أخرى. وسرعان ما اختلف الأخوان وأشياعهما، واندلعت حرب أهلية دامية حوصرت خلالها بغداد نفسها لأكثر من عام من جانب قوات العصبة الشرقية للمأمون، وبعدها قُتِل الأمين على يد أحد أتباع أخيه في العام

٨١٣. وكان المأمون مضطراً لمكافئة القائد طاهر الذي كان على رأس الفرق التي أوصلته إلى السلطة، فأعطاه حكماً مستقلاً ووراثياً لخراسان مع الاعتراف بالسيادة العباسية.

تخلى الخليفة التالي المعتصم (٨٣٣-٨٤٢) عن بغداد، وشيّد عاصمة جديدة ضخمة في سامراء أعلى دجلة، ظلت هي العاصمة حتى العودة إلى بغداد في العام ٨٨٩. دفعت المعتصم إلى تغيير العاصمة جزئياً رغبته في بناء "جيش نموذجي جديد" من الأتراك وغيرهم من الغلمان في موقع يسمح لهم بامتلاك الأراضي والممتلكات الأخرى مثل الامتيازات التجارية في مكان خال من تداعيات الماضي في بغداد. وأراد المعتصم بهذا الجيش الدائم المحترف أن يحل محل القوة الأصلية من الجنود العرب والإيرانيين غير الدائمين أو ما يعرف بـ"الخراسانية" التي اعتمد عليها النظام في السابق واتخذها ذراعاً عسكرياً رئيساً. وألغيت الرواتب التي كانت تتقاضاها هذه المجموعة في مقابل الخدمة السابقة كجزء من إصلاح عسكري ومالي بعيد المدى. كما فرض تقليداً جديداً في الدين يقول إن القرآن "مخلوق" وبالتالي خاضع للتفسير المتغير، بدلاً من أن يكون كلام الله الثابت والأزلي.

وبعد موت المعتصم في العام ٨٤٢، شهد النظام العباسي فترات قصيرة من الإنجاز والنجاح، لكن الاتجاه طويل المدى كان التراجع والأفول. ربما كان السبب الرئيس هو صعوبة جمع الدخل الضروري للحفاظ على سلامة الدولة. ويقول هيو كيندي Hugh Kennedy إن أرض السواد كانت تدّر مئة مليون درهم في العام في زمن العباسيين الأوائل حتى عهد المأمون، وهو المبلغ الذي انخفض إلى ثلاثين مليون في العام فقط في عهد المقتدر في العام ٩١٨[١٩]. وكانت هناك بالطبع مناطق مزدهرة أخرى مثل مصر وفارس، لكن المركز لم تصله هذه الموارد التي خضعت بالدرجة الأولى

لسيطرة القوى المحلية. وجاءت الضربة النهائية لازدهار العراق بقطع قناة نهروان الكبيرة، المصدر الرئيس للماء إلى أرض السواد، حين ردمها أحد أمراء الحرب المتقاتلين عن قصد في العام ٩٣٧ لعرقلة تقدم القوات المنافسة، ما خرب جهد قرون[٢٠].

شهد القرن العاشر أيضاً وقوع الخلافة تحت "وصاية" عشيرة إيرانية محاربة تعرف باسم البويهيين (٩٤١-١٠٥٥)، تنحدر من صياد سمك بسيط من منطقة بحر قزوين اسمه بويه Buyeh. وصل الإخوة الثلاثة الذين أسسوا ثروات العشيرة إلى السلطة كل على حدة في فارس والري وبغداد نفسها، لكنهم جَمَّعوا أصولهم في شكل اتحاد أسري، وأخذوا يقدمون الدعم بعضهم إلى بعض. وكانت قوتهم تقوم على الجيوش التي حشدوها من المشاة من موطنهم الديلم جنوب بحر قزوين والفرسان من الغلمان الأتراك. وقد مكّنهم ذلك من السيطرة على الخلفاء العباسيين، بالتعاون مع حلفائهم من طبقة الكتبة، مع بقاء العباسيين قادة روحيين. وعلى الرغم من كونهم "حماة" الخلافة العربية السنية، فقد كانت لدى البويهيين مشاعر دينية موالية للشيعة وأظهروا انجذاباً إلى الممارسات المَلكية الفارسية والساسانية المحلية، ما عزز الطابع الفارسي الذي أضفاه العباسيون أنفسهم على نظامهم. فمُنِح الضباط البويهيون إقطاعات، أي أراضي يستفيدون من عائداتها في مقابل الخدمة العسكرية، ما أوجد نوعاً من الإقطاع، وجعل دورهم أقرب إلى رؤساء القصور الميروفنجيين أو الشوغونات المتأخرين في اليابان[٣٩]. وإجمالاً، فقد كان نظامهم فعالاً وقوياً، وتمتعت ولايتهم فارس بازدهار خاص. وعلى ذلك، فإن تراجع بغداد وضواحيها لم يكن يعني أن العالم الإسلامي كله أو حتى الأقاليم العباسية كلها كانت تمر بالضرورة بخبرة مماثلة.

(٣٩) الشوغون هو الحاكم العسكري الإقطاعي الإمبراطوري لليابان فيما قبل عصر الإصلاح، ونظام الحكم فيه يسمى شوغونية، بدا في العام ١٥٩٨ بتأسيس شوغونية توكوغاوا [المترجم].

واستمر الخلل المالي بين مطالب الجيش وقدرة الاقتصاد على توليد الدخل اللازم، وترك النظام عرضة للصدمات والتهديدات الخارجية. وفي النهاية وقع كل من الخلفاء و"حماتهم" ضحية للقوة الجديدة الصاعدة إبان القرن الحادي عشر، وهم الأتراك السلاجقة.

كان النزاع متواصلاً في مركز الإمبراطورية العربية، وسرعان ما بدأت الوحدة الأولية للإمبراطورية تتفكك نتيجة للنزاعات الأسرية الداخلية والانشقاق الديني والميل الطبيعي لانفصال المقاطعات البعيدة عن مركز الدولة. وهكذا، جاء القرن التاسع وهناك سلالات حاكمة مستقلة في شمال أفريقيا مثل الأدارسة (٧٩٨-٩٠٦) في المغرب والأغالبة (٨٠٠-٩٠٩) في تونس. كان مؤسس دولة الأدارسة من الأشراف (أحفاد النبي) الذين فروا إلى شمال أفريقيا من المدينة بعد ثورة فاشلة ضد العباسيين. جذب نسبه إليه أتباعاً من القبائل البربرية التي ساعدته في تأسيس مدينة فاس عاصمة لمملكة جديدة، جذبت بدورها مهاجرين عرباً من الشرق ومن إسبانيا. ونشأت دولة الأغالبة كإقطاعية وراثية منحها الخليفة هارون الرشيد للحاكم العسكري لإفريقية (تونس وشرق الجزائر) في مقابل دفع مبلغ سنوي قدره أربعون ألف دينار. كانت عاصمة هذه الدولة في القيروان التي تطورت كمركز ديني وثقافي. كما غزا الأغالبة صقلية واحتلوها أخيراً وهاجموا المناطق المجاورة لروما.

وفي شرق إيران وبلاد ما وراء النهر[٤٠] كانت الدول الحدودية للطاهريين (٨٢١-٨٧٣) والصفّاريين (٨٧٣-٩٠٠) والسامانيين (٨١٩-٩٩٩) مستقلة تماماً، ما عدا التبعية الاسمية للخليفة العباسي في بغداد. كانت هذه الأسر الحاكمة جميعاً من

(٤٠) بلاد ما وراء النهر Transoxiana هو الاسم القديم للجزء من آسيا الوسطى الذي يتطابق تقريباً مع أوزبكستان وطاجيكستان وجنوب قيرغزستان وجنوب غرب كازاخستان الحالية، والنهر هو آمودريا بالفارسية أو آمو سند بالبشتونية أو جيحون بالعربية [المترجم].

أصل إيراني أنشأها في البداية موظفون عباسيون سابقون، باستثناء الصفّاريين الذين كانوا أصحاب ثورة اجتماعية من مقاطعة سيستان، وأسس دولتهم نحّاس (صفّار) أطاح بالطاهريين حين قاد ضدهم فرقة من المنشقين الدينيين وقطاع الطرق. وحكم السامانيون من بخارى دولة غنية وذات إدارة جيدة. ومدّت الدولة الغزنوية التركية (٩٦١-١١٨٦)، ومقرها غزنة وكابول بأفغانستان، نفوذها غرباً إلى حدود العراق على حساب العباسيين والبويهيين الذين كانوا الحكام الفعليين لدولة العباسيين. وثمة سلالة تركية أخرى هم الخاقانيون الذين أزاحوا السامانيين في بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر في العام ٩٩٩، وحكموا حتى العام ١٢١١. وهكذا، كان النمط في الشرق هو خسارة العباسيين العرب لمعظم سلطتهم الفعلية أولاً لصالح رعاياهم الإيرانيين وفي النهاية لصالح الأتراك، سواء كقبائل غازية أو كجيش للعباسيين أنفسهم.

تتجلى هذه العملية بوضوح في مصر التي استقل بحكمها فعلياً القائد العسكري التركي أحمد بن طولون في العام ٨٦٨. شيّد ابن طولون الجامع الرائع الذي لا يزال يحمل اسمه في الفسطاط أو القاهرة القديمة التي وسعها بزيادة المعسكرات والامتيازات التجارية لجيشه. ويبدو أن أحمد كان أحد أكثر الحكام استنارة في تاريخ مصر الطويل، فقد حسَّن الري، وأصلح النظام الضريبي لمصلحة الفلاحين، وعزز النمو الاقتصادي عموماً في دولته. ويقال إن ابن طولون كان يحصل على دخل سنوي قدره أربعة ملايين دينار، وحين ورَّث مصر لأبنائه ترك عشرة ملايين دينار في الخزانة. لكن ابنه المبذر قاد الدولة إلى الإفلاس الفعلي قبل أن تسقط دولة الطولونيين في العام ٩٠٥ وتعود السلطة إلى العباسيين. لكن هذه العودة لم تطل، إذ استولت على السلطة في العام ٩٣٥ سلالة أخرى من الحكام العسكريين الأتراك التابعين للعباسيين، هم الإخشيديون الذين واصلوا سياسات

الطولونيين تحت إشراف وزير بارع يدعى كافور، كان عبداً أسوداً خصياً من أصل سوداني على ما يبدو.

كانت أهم سلالة بين هذه الأسر المتنافسة جميعاً هي الفاطميون الذين أطاحوا بالأغالبة في تونس بواسطة قبائل بربرية منشقة في العام ٩٠٩. وكانت إفريقية التي تتطابق تقريباً مع تونس الحالية هي قاعدة الفاطميين، ووسع الفاطميون مدينة القيروان الأغالبية[٤١] كثيراً بعد استيلائهم عليها، وأسسوا ميناءً كبيراً وقاعدة بحرية في الموقع الجديد لعاصمتهم الأولى المهدية التي بنوا فيها أسطولاً ضخماً لاستخدامه ضد أعدائهم المسلمين والمسيحيين. وبعد تقوية قاعدة حكمهم، شن الفاطميون غزو مصر في العام ٩٦٩ واستولوا عليها من الإخشيديين. وبنى القائد الفاطمي المنتصر جوهر الصقلي، وهو أيضاً عبد لكن من أصل سلافي[٤٢]، العاصمة العظيمة- القاهرة- شمال الفسطاط لتكون نداً قوياً لبغداد.

كان الفاطميون من أتباع طائفة شيعية منشقة تدعى الإسماعيلية، تزعم أنهم الأئمة الحقيقيون المنحدرون من نسل علي وفاطمة. ولذلك كانوا ينظرون إلى العباسيين على أنهم غاصبون غير شرعيين للسلطة، وأعلنوا خلافتهم بعد فتح مصر. ولذلك أيضاً واصلوا الحرب والنزاع الطائفي مع العباسيين، ونجحوا في تحويل تجارة المحيط الهندي المربحة من الخليج العربي إلى البحر الأحمر. ومن خلال عائدات مصر الوفيرة ونمو التجارة الخارجية عبر البحر الأحمر، توفرت لهم الموارد لتأسيس القاهرة كعاصمة جديدة مهيبة، فضلاً عن الاحتفاظ بجيش قوي من المحاربين البربر القبَليين وكتائب من الجنود العبيد السودانيين والأتراك لتحدي العباسيين والبيزنطيين في سوريا وفلسطين. وكان الفاطميون على الرغم من عقيدتهم الشيعية الإسماعيلية المتقدة

(٤١) أي التي شيّدها الأغالبة [المترجم].

(٤٢) تذكر أن العرب أطلقوا اسم الصقالبة على العبيد السلاف [المترجم].

متسامحين ومنفتحين جداً في الحرية التي منحوها للطوائف والأديان الأخرى. واعتمدوا أيضاً بدرجة كبيرة على مستشارين يهود ومسيحيين من أمثال الوزير يعقوب بن كلس اليهودي[٤٣] العراقي الأصل الذي دخل الإسلام وخدم مع الإخشيديين في عهد كافور ومارس تأثيراً بنّاءً هائلاً على الإدارة الفاطمية لمصر. وعلى الرغم من أن الإمبراطورية الفاطمية كانت من حيث المبدأ دولة ثيوقراطية، فقد وقعت تحت هيمنة قادتها العسكريين والجماعات العرقية والإقليمية المختلفة التي انقسمت إليها.

وفي العام ١٠٠٠، شملت الممتلكات الفاطمية معظم شمال أفريقيا وغرب شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك مكة والمدينة، وجنوب سوريا وفلسطين، بما في ذلك دمشق والقدس. لكن ذلك لم يدم طويلاً. فحين شرع الفاطميون في غزو مصر، كانوا قد تركوا إفريقية في عهدة أسرة من حلفائهم البربر تعرف باسم الزيريين، كانت الأولى بين كثير من الأسر البربرية اللاحقة في شمال أفريقيا. في البداية خدمت هذه الأسرة الفاطميين بإخلاص، وكانت ترسل العائدات إليهم على النحو المطلوب، لكنها في منتصف القرن الحادي عشر انفصلت عن سادتها وبدأت في تبني سياسة مستقلة، وكانت الأسرة الأولى بين كثير من الأسر البربرية الحاكمة اللاحقة في شمال أفريقيا. فردّ الفاطميون على ذلك بإطلاق قبيلة بدوية، هي بنو هلال، على المناطق الغربية، التي قال عنها ابن خلدون إنها دمرت الريف "كموجة من الجراد"، فكانت بلاءً لم تتعاف منه هذه البلاد مطلقاً. ولم يتمكن البدو العرب من تأسيس أبنية دولة دائمة، ما فتح الطريق لظهور الدولة البربرية القوية المعروفة باسم المرابطين. كانت نتائج ذلك قاسية

(٤٣) يعقوب بن يوسف بن كلس، وُلد لعائلة يهودية في بغداد في العام ٩٣٠، ونشأ بها، وسافر مع أبية إلى الشام، ثم إلى مصر واتصل بكافور الأخشيدي وأصبح من أقرب خاصته، وأعلن إسلامه، ثم سافر إلى المغرب بعد أن سجنه الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات حسداً عليه، وفي المغرب خدم المعز لدين الله الفاطمي، ثم عاد معه إلى مصر، وتولى الوزارة في عهد العزيز بالله الفاطمي، له عدت مؤلفات في الفقه مثل كتاب "مصنف الوزير" و"الرسالة الوزيرية" [المترجم].

على الفاطميين، إذ غدت إمبراطوريتهم مقصورة على مصر وأجزاء من سوريا التي كان عليهم فيها أن يصارعوا بيزنطة الناهضة وعدة منافسين إسلاميين مختلفين. وعلاوة على ذلك، ربما تسبب الخليفة غير المستقر عقلياً الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢١) دون قصد في دفع الحملة الصليبية الأولى بعد قرن تقريباً نتيجة لتدميره الطائش لكنيسة القيامة في القدس، ما أثار سخط العالم المسيحي كله. وثمة مصاعب شاقة وشيكة كانت بانتظار الفاطميين وأعدائهم العباسيين والبيزنطيين جميعاً على أيدي فاعلين جدد على الساحة السياسية الأوراسية الغربية، وهم الأتراك السلاجقة والصليبيون الفرنجة.

وعلى الطرف الغربي للعالم الإسلامي، شهد منعطف الألفية إسبانيا الإسلامية في أوج قوتها. بدأ الفتح العربي الأولي في العام ٧١١ بقوة تتكون من سبعة آلاف محارب غالبيتهم من البربر بقيادة حاكم طنجة البربري طارق بن زياد الذي اعتنق الإسلام مؤخراً. هزمت هذه القوة جيش ملك القوط الغربيين لُذريق الذي قُتل في المعركة. ووصل للغزاة مدد في شكل قوة عربية أكبر بقيادة الحاكم الأموي لإفريقية، ما أدى إلى فتح معظم إسبانيا بحلول العام ٧١٤، وهو العام نفسه الذي اِستُدعي فيه القائدان إلى دمشق ولم يرجعا بعد ذلك. ويبدو أن فتح مستوطنة الأندلس، وهو الاسم الذي أطلقه العرب على المناطق من شبه الجزيرة الأيبيرية الخاضعة للحكم الإسلامي، جاء نتيجة لمبادرة محلية وليس اتجاهاً مركزياً من عاصمة الأمويين. سمح العرب للسكان المسيحيين بمزاولة عقائدهم تحت مؤسستهم الدينية، وأعطوهم الاستقلالية بشرط دفع الضرائب. ووزع العرب أراضي البلدات التي قاومتهم بين العرب والبربر، وكان العرب يعيشون عموماً في البلدات على ريع ضياعهم، وانخرط كثير من البربر في تربية الأغنام التي كانت حرفتهم في أوطانهم. وكان السكان اليهود

القليلون يتركزون في المناطق الحضرية، ويبدو أنهم ازدهروا كثيراً عما كانت عليه حالهم في عهد الحكام المسيحيين السابقين. وبدأ المسلمون أنفسهم يعانون من النزاعات الداخلية بين العرب والبربر وبين الجماعات القبَلية العربية ذاتها. وجاءت قوة عربية جديدة من سوريا لقمع ثورة بربرية في شمال أفريقيا والأندلس، أدت إلى تغليب العنصر العربي على حساب العنصر البربري في الأندلس.

كانت إطاحة العباسيين العنيفة بالأمويين في العام ٧٥٠ قد أدت إلى فرار أمير شاب من السلالة المنهارة يدعى عبدالرحمن إلى شمال أفريقيا. وقد أكسبه نسبه المميّز أتباعاً من كل من العرب والبربر، ما مكّنه من الاستيلاء سريعاً على إسبانيا كسلطة موِّحدة فوق الدويلات القائمة. أسس عبدالرحمن الأول دولة غنية وقوية، عاصمتها قرطبة، على نحو ما يتجلى فيما شيّد في عهده (٧٥٥-٧٨٨) من قصور وكذلك الجامع الكبير. وأصبح بلاطه مأوى للعرب والفرس المنشقين الفارين من أعدائه العباسيين. واستقرت الحدود مع المسيحيين على طول محور شمالي-شرقي جنوبي-غربي، مع أنهما تبادلا الهجمات وجس دفاعات أحدهما الآخر (أدت هزيمة العرب في بواتييه على يد شارل مارتل في العام ٧٣٢ إلى إيقاف محاولاتهم لغزو الأراضي الفرنسية). واحتفظ الحكام اللاحقون بمنصب الإمارة عموماً، مع وجود اختلافات معتادة وفقاً لقدرات الأمراء أنفسهم. وجاءت ذروة القوة في عهد عبدالرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١) الذي بلغ من القوة حد أن أعلن نفسه خليفة في العام ٩٢٩. اعتمد نظامه على جيش محترف من الجنود العبيد السلافيين، مستقلين بدرجة كبيرة عن الفرق ويدينون بالولاء له شخصياً. كما احتفظ عبدالرحمن الثالث ببيروقراطية مركزية قوية.

وانتهى العهد الطويل والرائع لعبدالرحمن الثالث أخيراً بعد نحو خمسين عاماً في العام ٩٦١. وكان ابنه الحكم الثاني (٩٦١-٩٧٦) وحفيده هشام الثاني (٩٧٦-١٠٠٩) حاكمين ضعيفين وواهنين، وكانت السلطة الحقيقية للدولة حتى وفاة الأخير

في العام ١٠٠٢ في يدي الوزير الأول ورجل الدولة العظيم المعروف تاريخياً بالاسم التشريفي المنصور. فقد حقق هذا الوزير سلسلة من الانتصارات المذهلة على الدول المسيحية المجاورة، ونهَب برشلونة وليون وبرغش Burgos، وأحرق ضريح سانتياغو دي كومبوستيلا[٤٤]، وأتى بأجراسه البرونزية الكبيرة إلى جامع قرطبة. وانتصر أيضاً على الفاطميين في شمال أفريقيا. لكن هذا النجاح كله، وكذلك إسرافه وقسوته، أنتجت رد فعل عكسي على ابنه الذي بلغ به التهور أن أعلن نفسه الوريث الشرعي للخليفة الدُمية هشام الثاني. فثار عليه وجهاء البلاط العرب الساخطون الذين ساءهم كثيراً اعتماد الأمويين على قواتهم البربرية والمرتزقة السلافيين والموظفين اليهود والمسيحيين، وقتلوه في العام ١٠٠٩. لكنهم لم يتمكنوا من الحفاظ على سلامة الدولة التي تفككت سريعاً إلى مجموعة من الشظايا يحكمها حكام الأقاليم وأمراء الحرب المعروفين باسم "ملوك الطوائف" الذين أعطوا هذا الاسم للفترة من العام ١٠٣١ الذي ألغيت فيه خلافة قرطبة رسمياً إلى العام ١٠٩١. ولا حاجة بنا للقول بأن تحلل النظام الأموي القوي إلى حفنة من الدول التافهة المتخاصمة كان هدية غير متوقعة لأعدائهم المسيحيين الذين لم يضيعوا وقتاً لاستغلال الموقف. وتضعضعت السيطرة الأندلسية على شمال أفريقيا كثيراً، وتمكن المرابطون البربر سريعاً من قلب اتجاه الهيمنة عبر مضيق جبل طارق.

ولذلك يمكن النظر إلى القرن الحادي عشر باعتباره نقطة تحول حرجة في أقدار الدول الثلاث الكبرى للعباسيين في الشرق والأمويين في قرطبة في الغرب والفاطميين في

---

(٤٤) سانتياغو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela، أو شنت ياقوب كما أسماها العرب، مدينة في منطقة جليقية بشمال غرب إسبانيا ترجع جذورها إلى ضريح القديس جيمس الكبير، أو يعقوب بن زبدي كما يسمى في المصادر العربية، الذي يشكل الآن كاتدرائية المدينة، ويعد مقصداً للحجيج النصارى، وشكّل وجوده طريق الحج الكاثوليكي في القرن التاسع الذي لعب دوراً في حشد الدعم النصراني لاسترداد الأندلس وطرد المسلمين منها [المترجم].

المركز. فقد انسلت السلطة من العباسيين إلى الفرس، وفي النهاية إلى الأتراك السلاجقة، وحصر البربر الأندلسيين في المغرب، كما حصرهم المسيحيون في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية، وحوصر الفاطميون في مصر بفشلهم في سوريا شرقاً وشمال أفريقيا غرباً، ولم تتحقق أحلامهم الألفية ببناء دولة عالمية للشيعة الإسماعيلية.

آسيا الوسطى (أو الداخلية)[٤٥]

آسيا الوسطى هي المنطقة الواسعة في داخل اليابسة الأوراسية المحاطة من الجنوب بسلاسل جبلية شاهقة ومن الشمال بالتندرا القطبية (انظر الشكل رقم١.٤). ويمكن تقسيم أرضها إلى أشرطة أفقية من الغابات (تسمى التيغة Taiga) والسهول والصحراء. وتتمثل المنطقة البيئية الأساسية في السهل، وهو موطن البدو الرعاة منذ أزمان سحيقة. والحدود الشرقية والغربية لآسيا الوسطى متغيرة مع حدود الحضارات المستقرة في الصين وكوريا في الشرق، وروسيا وإيران في الغرب. والمنطقة كلها تبلغ نحو ستة آلاف ميل من الشرق إلى الغرب وأقل قليلاً من نصف هذه المسافة من الشمال إلى الجنوب[٢١]. وتغطي تقريباً المناطق التالية: دول ما بعد الاتحاد السوفيتي الحديثة قيرغيزستان وطاجيكستان وتركمنستان وكازاخستان وأوزبكستان، فضلاً عن منغوليا والأجزاء من الصين المعروفة بمنغوليا الداخلية ومناطق الحكم الذاتي في التبت وشينجيانغ[٢٢][٤٦].

---

(٤٥) تتضمن مصادر هذا القسم Sources for this section include Barthold (1968), Christian (1998, chapters 10 and 11), Golden (1998), Hambly (1969), Lattimore (1973), McEvedy (1961), O'Brien (2002), and Sinor (1990).

(٤٦) شينجيانغ Xinjiang مقاطعة في أقصى شمال غرب الصين، ضمتها القوات الصينية الشيوعية في العام ١٩٤٩، وأطلقوا عليها هذا الاسم الذي يعني المستعمرة الجديدة، لكن أهلها المسلمين لا يزالون يستخدمون اسمها القديم: تركستان الشرقية [المترجم].

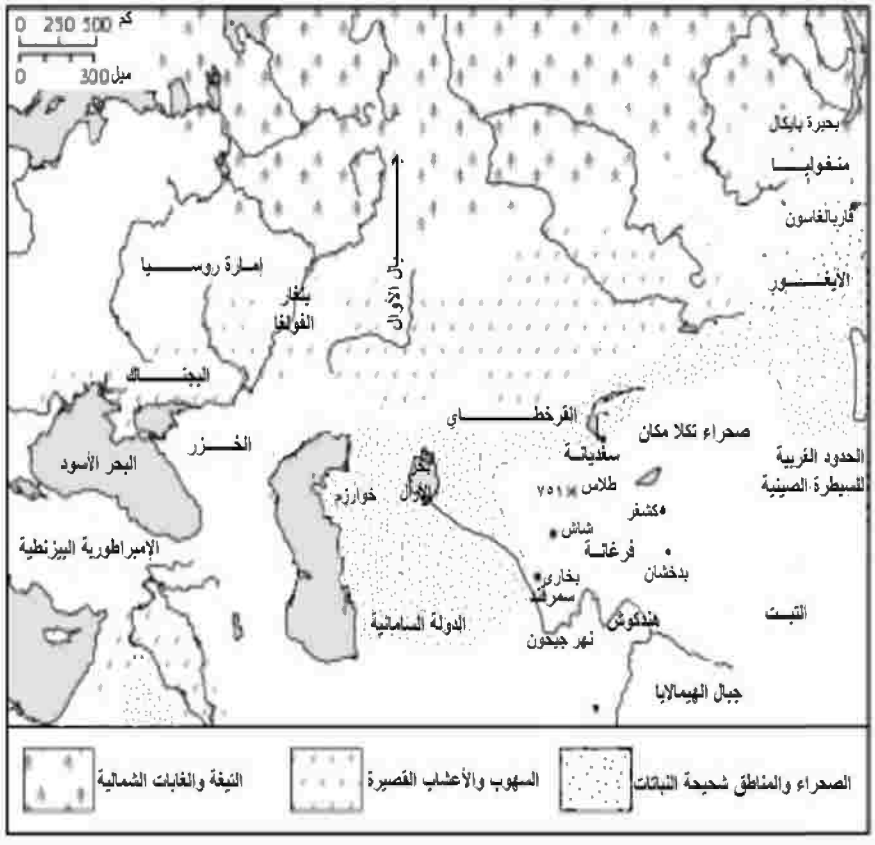

الشكل رقم (١,٤) آسيا الوسطى.

يشكل الاعتماد المتبادل بين الشعوب البدوية والشعوب المستقرة واحداً من أكثر الموضوعات تواتراً في التاريخ. فهذان النظامان الاقتصاديان متتامان، وهناك إمكانية للنفع المتبادل بينهما من تبادل الحبوب والصناعات مع حيوانات مثل الخيول والجمال والمنتجات الحيوانية. وحركية البدو الخيّالة أعطتهم دائماً خيار مهاجمة مزارع الجماعات المستقرة ومدنها ونهبها. وكان الغزو التام- في المقابل- يؤدي عادة إلى

التثاقف واستيعاب الحكام البدو الأقل عدداً من جانب الرعايا المستقرين. فكان على اليونانيين والرومان أن يصدوا السكوثيين[٤٧] والفرثيين[٤٨]، بينما دمر الهون[٤٩] والأفار والمجريون أوروبا إبان القرون الوسطى. ودخلت إمبراطورية هان Han الصينية في صراع طويل مع شيونغنو[٥٠]، وحكمت سلالات تركية مختلفة أجزاءً من الصين بعد سقوط إمبراطورية هان إبان القرن الثالث بعد الميلاد.

وآسيا الوسطى هي المنطقة التي وصفها السير هالفورد ماكيندر Halford Mackinder في عنوان مقالته الشهيرة بأنها "المحور الجغرافي للتاريخ"، إذ أكد في هذه المقالة أن هذا "القلب" الأوراسي سيطر من خلال غزواته المتتالية على الهلال الخارجي "للحواف" المحيطية في الشرق والغرب والجنوب[٢٣]. ويضيف ماكيندر أن هيمنة القلب على الحواف لم تنته بقصة رحلات الاستكشاف الأوروبية. فاختراع السكك الحديدية أتاح إمكانية دمج القلب للحواف بين الصين وروسيا، ما يعني أن القلب فرض سطوته مرة أخرى على الحواف المحيطية، وأنهى أيضاً عصر بريطانيا الحاكمة للعالم من خلال حكمها للبحار[٥١]. لكن في العام ١٠٠٠ كانت أعظم الفتوحات البدوية جميعها لا تزال في طي المستقبل، وهي فتوحات المغول.

---

(٤٧) السكوثيون Scythians شعب بدوي إيراني عاش في سكيثيا Scythia في المنطقة المطابقة للسهل البونطي- القزويني بأوروبا الشرقية وأجزاء من آسيا الوسطى طيلة العصور القديمة الكلاسيكية [المترجم].

(٤٨) الفرثيون Parthians شعب بدوي إيراني عاش في منطقة فرثيا بشمال شرق إيران التي كانت قاعدة للسلالة الأشكانية التي حكمت الإمبراطورية الفرثية [المترجم].

(٤٩) الهون Huns جماعة من القبائل البدوية ظهرت في أوروبا من شرق نهر الفولغا بمنطقة السكوثيين الأوائل بالقرب من بحر قزوين [المترجم].

(٥٠) شيونغنو Hsiung nu جماعة بدوية قديمة شكّلت دولة أو اتحاداً من القبائل في مكان منغوليا الحالية [المترجم].

(٥١) أوضح ليوبولد أميري Leopold Amery أكثر من مرة في مناقشته لهذه المقالة في الجمعية الجغرافية الملكية أن السيطرة على الجو، وليس على الأرض أو المياه، هي التي حددت القوة المهيمنة في القرن الجديد والأخير بالألفية الثانية.

على أن النظر إلى آسيا الوسطى لا يجب أن يقتصر بحال من الأحوال على كونها منطقة الانطلاق للموجات المتعاقبة من الغزاة البدو الذين اجتاحوا الحضارات المستقرة المسالمة على حدودهم. فقد كانت أيضاً على مدى آلاف السنين تقاطع طرق تدفقت خلالها السلع والاختراعات التقنية والأشكال الفنية والأديان بين المناطق المستقرة المتباعدة. فطريق الحرير الأسطوري، أو بالأحرى طرق الحرير، عملت لآلاف السنين على نقل الحرير والخزف والتقنيات الصينية إلى الغرب، ونقل المانوية والمسيحية النسطورية والإسلام من الغرب والبوذية من الهند إلى الصين وكوريا واليابان. وكانت جباية الضرائب على القوافل العابرة للمنطقة مربحة عادة أكثر من نهب هذه القوافل. وكان الشيء المربح أكثر من الاثنين هو الحصول على سلع أساسية، مثل الحرير من مصدره في الصين، ثم بيعها في الغرب، ولو بقوة السلاح، إن أمكن. وهذا بالضبط هو ما نجحت في تطبيقه إحدى إمبراطوريات السهل البدوية إبان منتصف القرن السادس.

تعرف هذه الإمبراطورية باسم الإمبراطورية التركية الأولى التي بلغت أوجها إبان النصف الثاني من القرن السادس. لغوياً، تشكل شعوب السهل جزءاً من المجموعة الألطية[٥٢] التي تنقسم إلى الفرعين التركي والمغولي. أما الشعب الذي أسس هذه الإمبراطورية فكان يعرف باسم الغوق[٥٣] أو الأتراك الزرق، والزرقة هنا من لون السماء، بمعنى "السماوي" أو "الإلهي". وكان هذا الشعب اتحاداً من القبائل، حظيت عشيرة أشينا Ashina من بينهم بالاعتراف بهيمنتها على كل القبائل الأخرى، ولذلك كانت تقدم الحاكم الأعلى المعروف باسم الكاغان kaghan والنائب المعروف باسم

(٥٢) الألطيون Altaic جماعة قبَلية كبيرة متفرقة تحدثت عائلة من اللغات بالاسم نفسه، انتشرت من شمال شرق آسيا إلى آسيا الوسطى والأناضول وأوربا الشرقية [المترجم].

(٥٣) الغوق Gok أو الأتراك الزرق Gokturks اتحاد من الشعوب البدوية التركية في آسيا الوسطى، كانت لهم عدة دول قوية في العصور الوسطى [المترجم].

يابغو yabghu. وهذه القبيلة لها تاريخ مع أشغال الحديد، ربما بسبب وجود مناجم الحديد في أراضي الأجداد في السلسلة الجبلية الألطية. وكانت القوة الأساسية المميّزة لها تتمثل في الفرسان المسلحين الذين استفادوا في تجهيزهم من هذه الصناعة بالتأكيد.

لم تكن الصين دولة موحدة في وقت ظهور هذه الإمبراطورية، وكانت أقوى دولة على الإطلاق، وهي دولة واي Wei الشمالية البدوية المُتَصَيّنة[٥٤]، هي نفسها مقسمة بين فرع غربي عاصمته شانغان Chang'an وفرع شرقي عاصمته لويانغ Lo-yang. وكان الأتراك يحصلون على كميات هائلة من الحرير في مقابل الخيول بشروط تجارية مواتية، بفضل الضغط العسكري الذي مارسوه على الصينيين. وبعد ذلك، كانوا ينقلون الحرير غرباً عن طريق السُغديين[٥٥] والجماعات التجارية الأخرى على طريق الحرير بأرباح كبيرة للأتراك أنفسهم بسبب نجاحهم في مد سيطرتهم على طول الطريق إلى حدود الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية في الغرب. لكنهم لم يحاولوا أن يفرضوا حكماً مباشراً على أية مناطق أو شعوب أخرى، وإنما مارسوا شكلاً فضفاضاً من الهيمنة على مدن الواحات والقبائل على طول طريق الحرير. ومع ذلك، ظلت المنطقة شاسعة جداً، ولذلك قُسِمت بين فرع شرقي كبير وفرع غربي أصغر. وسقطت هذه الإمبراطورية، حين توحدت الصين في عهد دولة سوي Sui القصير والقوي (٥٨١-٦١٧) التي امتلكت القوة العسكرية لإعادة تأكيد السيطرة الصينية على السهل. وأكمل الأباطرة الأقوياء من دولة تانغ الجديدة عمل دولة سوي في هذا المجال، وبذلك انتقلت السيادة التي ادعتها الإمبراطورية التركية الأولى على طول طريق الحرير كاملاً إلى الصين.

---

(٥٤) "التَصَيُّن" و"يَتَصَيّن" و"مُتَصَيّن" وغيرها بمعنى تبني الثقافة ونمط الحياة الصيني من جانب غير الصينيين، و"التصيين" بمعنى فرض أو إضفاء الطابع والثقافة الصينيين على غير الصينيين [المترجم].

(٥٥) السُغديون أو السُقديون Sogdians شعب إيراني قديم عاش في آسيا الوسطى، وشكل جزءاً من الإمبراطورية الأخيمية في مقاطعة سُغديانة أو سُقديانة [المترجم].

كان المنافس التالي على السيادة على طريق الحرير هو الخلافة العربية. سحقت القوات العربية الإمبراطورية الساسانية واحتلت العراق وغرب إيران بسرعة كبيرة، لكنها استغرقت وقتاً أطول لتهدئة مقاطعة خراسان الشرقية الكبيرة ووقتاً أطول بكثير لمد سلطتها عبر نهر جيحون إلى بخارى وسمرقند وشاش Shash (طشقند) والمراكز التجارية الغنية الأخرى بسُغديانة Sogdiana. ويبدو أن الطبقة التجارية كانت مستعدة للوصول إلى تسوية مع العرب، طالما أنها تستطيع أن تواصل العمل بالتجارة، لكنَّ ملاك الأراضي قاوموا بعناد وكذلك سادتهم الأتراك الغربيين السابقين. كما التمسوا المساعدة من إمبراطورية تانغ الصينية المتسلطة عليهم، لكن المسافات حالت دون حصولهم على مساعدة فعالة، وهو أمر غير مستغرب في ذلك الزمان. وأرسل العرب أنفسهم تطمينات دبلوماسية إلى الصينيين بأن التجارة لن تقطع. ومع ذلك، فقد دخل العرب والصينيون في أعمال عدائية مباشرة، حين هاجم حاكم طشقند التابعة للعرب فرغانة وهي دولة تابعة للصين. وأدى ذلك إلى معركة نهر طلاس الشهيرة في العام ٧٥١ التي هُزِم فيها الصينيون حين حوَّل حلفاؤهم من الأتراك القارلوق Karluk Turkic ولاءهم لصالح العرب. وكان من النتائج البارزة للمعركة أخذ الأسرى الصينيين إلى سمرقند لتعليم آسريهم فن صناعة الورق. ولم يدخل الجانبان أبدا في مواجهة مباشرة مرة ثانية.

ظلت بلاد ما وراء النهر والمقاطعات المرتبطة في خوارزم وخراسان تحت النفوذ الإسلامي وبلغت ذروة التقدم الاقتصادي والثقافي في عهد دولة السامانيين الإيرانية (٨١٩-٩٩٩) الذين اتخذوا من بخارى عاصمة لهم. وكما أشرنا آنفاً، فقد اعترفوا بالسلطة الروحية للخلافة العباسية، لكنهم كانوا حكاماً ذوي سيادة في كل الأمور الأخرى. وقد حافظوا على البنية التحتية المادية لأعمال الري الزراعي، وإمداد المياه

للمدن، وشيّدوا نزلاً أو خاناً للقوافل الكبيرة التي تغادر في كل الاتجاهات، نحو روسيا والصين والهند، ودعموا المؤسسات الدينية والتعليمية بدرجة غير مسبوقة. واستغلوا مناجم الفضة في مقاطعة بدخشان الواقعة في أفغانستان الحالية، التي كانت الأساس لعملة عالية النوعية. وكان النظام العسكري يقوم على تجنيد العبيد المحاربين من السهول المعروفين بالغلمان أو الطلاب العسكريين الذين كانوا يمرون بفترة طويلة من التدريب والترقية قبل أن يصبحوا قادة وإداريين في العقد الثالث من عمرهم. وكان الطلب على العبيد العسكريين وغيرهم من العبيد يشجع تجارة كبيرة في البشر أجازتها الدولة وفرضت ضرائب عليها، وكانت ضرائب التصدير للعبد الواحد تتراوح من ثلاثين إلى سبعين درهماً، مقارنة بمتوسط سعر قدره ثلاثمائة درهم للعبد الواحد. وغطى النظام الضريبي تكاليف الإدارة والبلاط المسرف، لكنه لم يكن عالياً جداً لدرجة تعيق التجارة والصناعة. ومن اللافت للنظر أن كل الموظفين العسكريين والمدنيين كانوا يحصلون على رواتبهم نقداً دون الاستعانة المُنهِكة بمنح الأراضي الإقطاعية التي كانت معظم الدول المبكرة تلجا إليها.

ودخل أتراك السهول في الإسلام، ورفعوا بذلك مستوى تنظيمهم الاجتماعي والسياسي، فيما احتفظوا بمهارتهم العسكرية العالية. وسلالة الخاقانيين الجديدة، تلك القبيلة التركية التي اعتنقت الإسلام على يد الدعاة الصوفيين، ظهرت بالقرب من كاشغر[٥٦]، وقد أطاحوا- كما رأينا- بالسامانيين قبل نهاية الألفية مباشرة، حين دمرت دولتهم النزاعات الداخلية. ومن اللافت للنظر أن العلماء ورجال الدين المسلمين ببخارى أمروا عامة الناس بعدم مقاومة الغزاة لأن الطرفين مسلمان. وبقيت مدن بلاد ما وراء النهر التي تقع حالياً في أوزبكستان ما بعد السوفيتية في الفلك التركي

(٥٦) كاشغر Kashgar أحد أشهر مدن تركستان الشرقية وأهمها، كانت عاصمة تركستان الشرقية التي سميت لاحقاً شينجيانغ أيغور، وكانت مركزاً تجارياً عظيماً مع روسيا [المترجم].

إلى يومنا هذا. وفيما استولى الخاقانيون على بخارى وأراضي السامانيين شمال نهر جيحون، آلت منطقة خراسان جنوب النهر إلى سلالة تركية أخرى، هم الغزنويون (٩٧٧-١١٨٦) الذين نفذ قائدهم محمود غارات مدمرة على الهند، وكان يرجع منها في كل مرة بكميات كبيرة من الغنائم.

وفي الشرق، كان هناك اتحاد قَبَلي تركي قوي آخر، هم الأيغور[٥٧] الذين ظهروا في العام ٧٤٤ وحكموا حتى العام ٨٤٠. كانوا في البداية قوات تابعة لإمبراطورية تانغ الصينية التي أصبحت أكثر اعتماداً على مساعدتهم العسكرية، وبخاصة في أثناء تمرد آن لو شان An Lu Shan في العام ٧٥٥. وحصلوا في المقابل على ثمن عالٍ في شكل التبادل المألوف للخيول مع الحرير، وكذلك نهب المدن والمقاطعات الصينية في أثناء إخماد الثورات. وتحالفوا بقوة أيضاً مع جماعة التجار السُغدية، لدرجة أن حاكمهم اعتنق المانوية كدين رسمي تحت تأثير السُغديين. واستخدموا الأبجدية السُغدية التي تبناها المغول لاحقاً، وزادت مستويات معرفة القراءة والكتابة بينهم كثيراً. وكانت عاصمتهم قاربالغاسون Karabalghasun في منغوليا مركزاً تجارياً مزدهراً لعدد كبير من السلع، منها الفراء ومنتجات الغابات الأخرى القادمة من الشمال. وكانت تحيط العاصمة منطقة زراعية كبيرة لإطعام عدد السكان الكبير. وربما بسبب رقتهم نتيجة لنجاحهم التجاري ودينهم المسالم، وقع الأويغور في النهاية فريسة للغزو من جانب أتباعهم السابقين: القرغيزيين.

ثمة إمبراطوريتان تركيتان أخريان في السهول الغربية، هما الخزر في المنطقة الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين وبلغار الفولغا على الأجزاء الوسطى من ذلك النهر. شاركت هاتان الإمبراطوريتان بقوة في تدفق تجارة الشمال-الجنوب والشرق-

(٥٧) الأيغور Uighurs جماعة عرقية تركية مسلمة تقطن آسيا الوسطى والشرقية، وتتركز حالياً في منطقة الأيغور أو تركستان الشرقية التي تتمتع بالحكم الذاتي بمقاطعة شينجيانغ (تركستان الشرقية) الصينية [المترجم].

الغرب التي تضمنت العبيد السلافيين والفراء والعسل والشمع والكهرمان من الشمال، والحرير وسلع الترف الأخرى من الشرق، والفضة من خلافة بغداد وإمارة السامانيين ببخارى. اعتنق بلغار الفولغا الإسلام، في حين دخل الخزر في اليهودية، ربما لتجنب الخضوع لهيمنة جيرانهم المسلمين أو المسيحيين الأرثوذكس. وسقطت الدولتان أمام القوة المتصاعدة لروسيا الكييفية قبل نهاية القرن العاشر. وثمة قبيلة تركية أخرى، هي البجناك لم تشكل دولة، لكن شراستها ومهارتها العسكرية العالية جعلتها مرهوبة الجانب من كل الشعوب التي اتصلت بها، من المستقرين أو البدو الرحل على حدٍ سواء.

جنوب آسيا[٥٨]

تفصل جبال الهيمالايا وهندوكوش الهند عن آسيا الوسطى، وتشكل الهند شبه جزيرة وشبه قارة على اليابسة الأوراسية تشبه أوروبا الغربية في عدة نواحٍ (انظر الشكل رقم١,٥). فقد نشأت ثقافة متميّزة عن امتزاج السكان الدرفيديين[٥٩] الأصليين والبدو الرعاة الآريين الذين جاءوا من الشمال قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام. كانت الطائفة العليا من البرهمن Brahmins والمحاربين يعيشون على حصاد السهل الشمالي الخصب الذي يُزرَع بكد طائفة الشودرا shudra. ظهر عدد من الممالك في السهل، في حين كانت التلال في سفوح جبال الهيمالايا موطناً لبعض الممالك القبَلية. فمملكة ماغدا Magadha على نهر الغانج الأدنى سيطرت على كامل السهل إبان منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد بفضل موقعها الملائم للتجارة الداخلية وتجارة ما وراء البحار. وأعطتها رواسب خام الحديد المحلية ميّزة في الأسلحة، ووفرت لها الغابات الخشب

---

(٥٨) تتضمن مصادر هذا القسم Arasaratnam (1964), Kosambi (1969), O'Brien (2002), Schmidt (1999), Stein (1998, chapters 1-3), and Thapar (2002).

(٥٩) الدرفيديون Dravidians هم الشعب أو الشعوب الأصلية بشبه جزيرة الهند يتحدثون عائلة من اللغات تسمى الدرفيدية [المترجم].

وإمداداً وفيراً بفيلة الحرب. وتعرض شمال غرب الهند لتأثير إيراني كبير، وأصبحت مدينة تكسيلا[٦٠] مركزاً للتبادل المثمر للأفكار بين التقاليد الهندية والفارسية. ثم جاء غزو الإسكندر الأكبر في العام ٣٣٠ قبل الميلاد لينشر التأثيرات الثقافية اليونانية والفارسية في قندهار[٦١]، وهي التأثيرات التي تركت بصمتها المميّزة في فن النحت البوذي. كما وفرت هضبة جنوب الدكن التي يعبرها عدد من الأنهار إمكانات زراعية متنوعة. وتطورت هناك تخصصات حرفية عديدة وصناعة منسوجات قطنية متميّزة منذ الأزمان البعيدة.

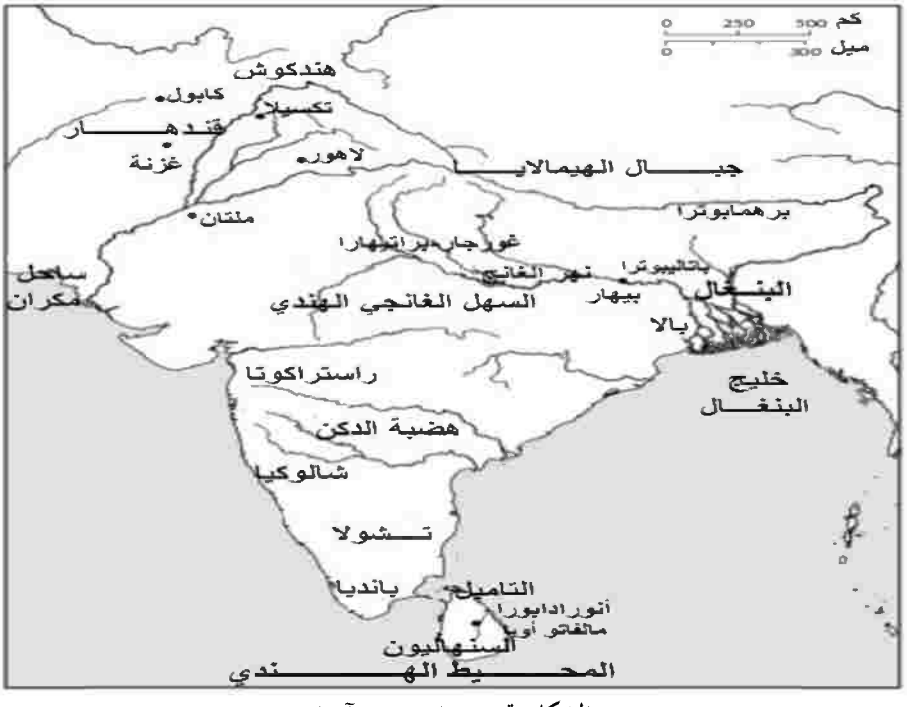

الشكل رقم (١,٥) جنوب آسيا.

(٦٠) تكسيلا Taxila مدينة بمقاطعة البنجاب الباكستانية بالقرب من إسلام أباد [المترجم].

(٦١) قندهار Gandhara مملكة قديمة كانت تقع على أجزاء من شمال باكستان وشرق أفغانستان الحاليتين، في وادي بيشاور وهضبة بوثوهار ووادي نهر كابول [المترجم].

كانت سواحل مالابار وكوروماندل في الغرب والشرق على التوالي ترتبط بصلات تجارية بالخليج العربي والبحر الأحمر وبكل من جنوب شرق آسيا القارية والجزيرية. وقد عُثِر فيها على عملات معدنية رومانية بوفرة كبيرة، وهو ما يشهد على هذه التجارة. وكان تجار البحر الأبيض المتوسط أيضاً يحصلون على سلع جنوب شرق آسيا في الموانئ الهندية، ما حفز العلاقات الهندية مع مصدر تلك السلع. وبذلك انتقلت التأثيرات الدينية والثقافية الهندوسية والبوذية، بما في ذلك الأفكار السياسية الأساسية حول المُلك وأصول الحكم إلى الدول الجديدة الناشئة في كمبوديا وتشامبا[٦٢] وجاوة وسومطرة. وأنصاب أنغكور واط[٦٣] وبوروبودور[٦٤] وبرامبانان[٦٥] من أوضح الأدلة على عمق هذا التأثير الهندي.

تحققت الوحدة السياسية للسهل الغانجي الهندي[٦٦] ومعظم جنوب الهند في الإمبراطورية الماورية (٣٢١-١٨٥ قبل الميلاد) التي أسسها شاندرا غوبتا ماوريا Chandra Gupta Maurya الذي ظهر في أعقاب غزو الإسكندر الأكبر. نجح شاندرا غوبتا في تحدي الحاكم السلوقي نيكتور Nicator الذي خلف الإسكندر في المناطق التي تقع الآن في شرق أفغانستان، وأقامت الدولتان علاقات دبلوماسية سلمية، ربما لذلك ترك السفير اليوناني ميغاسينيز Megasthenes رواية قيّمة حول الهند. وحقق الإمبراطور

---

(٦٢) تشامبا Champa مملكة هندوسية وبوذية حكمت المنطقة المطابقة لفيتنام الحالية من القرن السابع تقريباً حتى العام ١٨٣٢ [المترجم].

(٦٣) أنغكور وات Angkor Wat مُجمّع معابد هندوسي في منطقة أنغكور بكمبوديا شيّده الملك سرفاومان الثاني في بداية القرن الثاني عشر ليكون المعبد الرسمي للدولة وعاصمتها [المترجم].

(٦٤) بوروبودور Borobudur معبد بوذي مهاني بُني في القرن التاسع في ماغيلانغ بجاوة الوسطى بإندونيسيا [المترجم].

(٦٥) برامبانان Prambanan مُجمّع معابد هندوسي شُيّد إبان القرن التاسع في جاوة الوسطى بإندونيسيا [المترجم].

(٦٦) نسبة إلى نهر الغانج [المترجم].

الماوري التالي فتوحات واسعة في الجنوب والغرب. كان الحاكم الثالث بهذه السلالة هو أشوكا Ashoka الشهير، المعروف بتقواه ودعمه للبوذية التي تحوّل إليها ندماً على غزوه الدموي لكالينكا[٦٧] التي كانت المكون الأخير في إمبراطوريته الماورية. تفككت هذه الإمبراطورية بعد موته مباشرة في العام ٢٣٢ قبل الميلاد. وتبع الحكم السلوقي في شمال غرب الهند ظهور ما يسمى الملوك الهنود-اليونانيين Indo-Greek kings الذين كان من أبرزهم ميناندر Menander (١٥٥-١٣٠ قبل الميلاد). وخلفت الهنود-اليونانيين جماعتان من بدو آسيا الوسطى، هما الساكا Sakas والكوشان Kushans، شجعتا التجارة بين الهند وطريق الحرير إبان القرنين الأولين بعد الميلاد. وكان الطريق الملكي الماوري السريع من باتاليبوترا[٦٨] إلى تكسيلا الذي لا يزال موجوداً إلى اليوم باسم الطريق الرئيس، كان جزءاً من هذا الطريق التجاري الذي كان يصل بعد ذلك إلى كابول، ومن خلال باختر[٦٩] إلى البحر الأسود وبحر قزوين. وكانت تجارة ما وراء البحار تتجه جنوب نهر الغانج إلى خليج البنغال، ومن هناك إلى جنوب شرق آسيا وسيلان، أو سريلانكا كما تعرف اليوم.

ثمة إمبراطورية قوية أخرى، هي غوبتا Gupta، دامت من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلاديين. وتعد هذه الإمبراطورية عموماً "العصر الكلاسيكي" للحضارة الهندية، وبلغت أوجها في عهد هارشا Harsha (٦٠٦-٦٤٧) الذي تبددت فتوحاته الواسعة في شمال الهند بعد موته. تميّز هذا العصر بالازدهار المادي، على الأقل للنخبة الحاكمة، فضلاً عن الإنجازات الفكرية والثقافية البارزة. وشجعت الدولة كلاً من الهندوسية والبوذية، كما لقيت الأخيرتان أيضاً دعماً في شكل تبرعات خاصة من

---

(٦٧) كالينكا Kalinga حالياً مقاطعة داخلية بالفلبين [المترجم].

(٦٨) باتاليبوترا Pataliputra مدينة في الهند القديمة، يوجد مكانها اليوم مدينة باتنا Patna [المترجم].

(٦٩) باختر أو باختريا Bactria هو الاسم القديم للمنطقة التاريخية الواقعة بين جبل هندوكوش ونهر جيحون، وعاصمتها كانت تقع مكان بلخ الحالية [المترجم].

الأفراد والنقابات التجارية. فانتقلت البوذية إلى سيلان وجنوب شرق آسيا، وأيضاً إلى إيران وآسيا الوسطى، وفي النهاية إلى الصين على طول طريق الحرير. وزار كثير من الحجاج البوذيين الصينيين الهند، من أمثال فا هساين Fa Hsien وهسوان تسانغ Hsuan Tsang، وتركوا تسجيلات رائعة لخبراتهم وانطباعاتهم.

وبعد تراجع إمبراطورية غوبتا، ظهر عدد من الممالك الإقليمية في الشمال وفي هضبة الدكن. وكما هي الحال في أوروبا الغربية، لم تتمكن إحداها من السيطرة على الموارد اللازمة للهيمنة على كل الممالك الأخرى وفرض إمبراطورية موحدة. وكانت إمبراطورية بالا Pala في بيهار والبنغال معروفة بدعمها للبوذية إبان القرنين الثامن والتاسع، وحققت إمبراطورية غورجار-براتيهارا Gurjar-Pratihara في شمال الهند بعض النجاح في مقاومة هجمات الهونيين من آسيا الوسطى. وفي الدكن، حال انقسام المنطقة إلى عدد من الوديان النهرية تجري من الغرب إلى الشرق وعدد من الأشرطة الساحلية المتجاورة، دون تمكين أية قوة واحدة من السيطرة على المنطقة، على الرغم من الصراعات القاسية بين دولة شالوكيا Chalukya ودولة بالافا Pallava ودولة باندیا Pandya. وتمتعت دولة راستراكوتا Rastrakuta في غرب الدكن بحضور بارز، لكنها فقدت قوتها لصالح شالوكيا مع نهاية القرن العاشر. وشهد الجنوب تطورات ثقافية ودينية بارزة، منها امتزاج العناصر الآرية والدرفيدية وظهور الشخصية التاميلية المتميّزة. وأصبح الجنوب أيضاً أكثر انخراطاً في تجارة المحيط الهندي. واستقر كثير من التجار العرب على ساحل مالابار الغربية، ما أدى إلى نشأة الجماعة المسلمة المسماة موبلا[٧٠] التي لعبت لاحقاً دوراً مهماً في كل من التجارة وانتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا. ومع منعطف الألفية الأولى، برزت دولة تشولا Chola

(٧٠) الموبلا Mopla أو المابلا Mappila أكبر جماعة مسلمة في ولاية كيرالا الهندية تتركز في المنطقة الشمالية المسماة مالابار، تشكلت بفعل انتشار التجار المسلمين، حتى تصل الفتوحات الإسلامية هناك [المترجم].

القوية، وتابعت مصالحها بقوة على البر وفيما وراء البحار في سيلان وجنوب شرق آسيا.

استوطن مهاجرون من شمال الهند في جزيرة سيلان في وقت ما من القرن الخامس قبل الميلاد، ربما أبحروا على طول الساحل الغربي. وكان السكان الأصليون هم شعب أسترالويد Australoid الذين يبدو أنهم لم يُظهِروا أية مقاومة. جعل موقع الجزيرة منها محطة تجارية طبيعية لتجارة الشرق-الغرب عبر المحيط الهندي. وكانت معروفة للرومان باسم تابروبين Taprobane، وترددت عليها أيضاً السفن الفارسية والعربية والصينية. وجاءت هجرة أخرى من جنوب الهند، وتحديداً من مملكة باندیا وفقاً للروايات التقليدية. وكانت المستوطنات الأولى في الشمال الغربي على طول نهر مالفاتو أويا Malvattu Oya، وتأسست عاصمة في أنورادابورا Anuradhapura. وكانت زراعة الأرز الركيزة الأساسية للاقتصاد، ولقيت الدعم مما أصبح في النهاية نظام ري متطوراً جداً.

وعلى الرغم من أن المهاجرين كانوا بوذيين ورعين، فقد جلبوا معهم نظام الطوائف الهندي-الآري، رغم أنه عمل بطريقة أكثر ليناً ومرونة منه في الهند، وكان التمييز الرئيس بين المهن الزراعية وغير الزراعية. وكانت العلاقات بالمراكز البوذية في الهند وجنوب شرق آسيا قوية جداً، وكانت سيلان موطن مذهب هينايانا Hinayana الأكثر تزمتاً وصفاءً أو مدرسة البوذية الثهروادية[٧١] التي اعتنقها الناس في بورما وكمبوديا وتايلند. وتورطت سيلان بقوة في النزاعات السياسية للسلالات الحاكمة الهندية الجنوبية. وغزت سلالة تشولا سيلان في العام ٩٩٣ ونهبت العاصمة وضمت

(٧١) البوذية الثهروادية أو ثيرافادا Theravada، بمعنى طريق الأقدمين، أحد المذهبين الرئيسين في البوذية، ينتشر في دول جنوب شرق آسيا، يتميز بالبساطة وعدم الإيمان بأي إله والتأكيد على الحرية الشخصية [المترجم].

الجزيرة إلى مملكاتها حتى العام ١٠٧٠، حين استعادها السنهاليون. وتورطت سيلان أيضاً في نزاعات بسبب التجارة مع بورما والدولة التجارية السومطرية المعروفة باسم سيريفيجايا Srivijaya.

جنوب شرق آسيا(٧٢)

يمكن تعريف جنوب شرق آسيا بأنه كل اليابسة الأوراسية شرق الهند وجنوب الصين، فضلاً عن سلسلة الجزر الطويلة "الملقاة مثل طوق من الأحجار الكريمة حول خط الاستواء" (انظر الشكل رقم ١.٦). وتنقسم المنطقة طبيعياً بين كتلة من اليابسة وجزر الأرخبيل. تضم اليابسة الدول القومية المعاصرة بورما وتايلند ولاوس وكمبوديا وفيتنام وماليزيا، وتشمل الجزر سنغافورة وإندونيسيا والفلبين وبروناي وتيمور الشرقية. تشغل ماليزيا اللسان الضيق الطويل لشبه الجزيرة الذي كان القدماء يعرفونه باسم "خيرسونيز الذهبية" Golden Khersonese وتعد جغرافياً وثقافياً جزءاً من الجزيرة وليس من اليابسة[٢٤]. والخاصية الجغرافية البارزة لليابسة هي سلسلة الوديان النهرية الطويلة التي تجري عموماً من الشمال إلى الجنوب، وهي إيراوادي Irrawaddy وسالوين Salween وماينام تشاو فرايا Maenam Chao Phraya وميكونغ Mekong، فضلاً عن النهر الأحمر الأقصر الذي يجري من الغرب إلى الشرق. والسهول على طول هذه الوديان النهرية وتلك الأنهار الصغرى المتوازية، وبخاصة الدلتات الغنية بالغرين، مناطق خصبة لزراعة الأرز، ذلك المحصول الذي ظل السلعة الأساسية لشعوب هذه المنطقة على مدى آلاف السنين. وقد كان للري في المناطق قليلة المطر، مثل المنطقة الجافة وسط بورما، الفضل في أعلى مستويات الإنتاج الزراعي، وشكّل الركيزة الاقتصادية للممالك والإمبراطوريات المبكرة[٢٥]. وكانت الوديان

---

(٧٢) تتضمن مصادر هذا القسم Coedes (1968), Hall (1968, part I), O'Brien (2002), Reid (1988), Tarling (1992, part I), Wang (1998), and Wolters (1999).

النهرية في الغالب محاطة بنجود تكسوها الغابات، كانت أصعب في زراعتها، إلا بعد قطع الأشجار وحرقها. وتضم الجزر الرئيسة بالأرخبيل الإندونيسي سومطرة وجاوة وبالي ولومبوك Lombok وبورنيو Borneo وسيليبيز Celebes (سالاويزي) ومنداناو Mindanao ولوزون Luzon، فضلاً عن عدد كبير من الجزر الأخرى الصغرى ذات الأهمية الاقتصادية والتاريخية الكبيرة. وتتعرض المنطقة برمتها للعب الرياح الموسمية التي تهب من الجنوب الغربي من مايو حتى سبتمبر، ومن الشمال الشرقي من نوفمبر حتى مارس. ومتوسط المطر مرتفع، ويتركز على كتلة اليابسة في فترة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية.

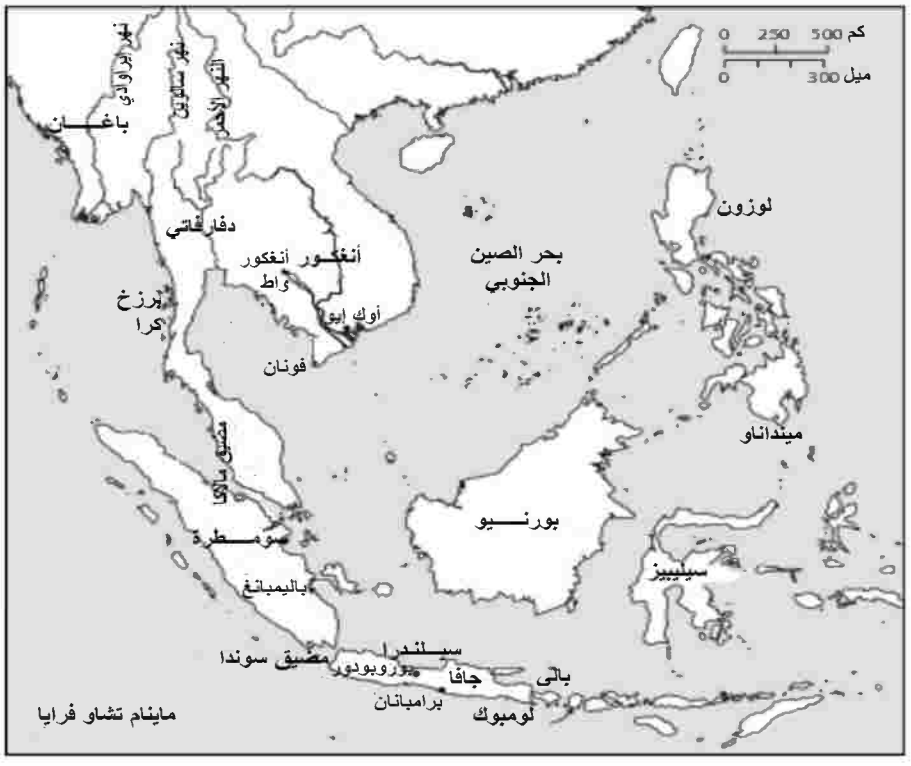

الشكل رقم (١,٦) جنوب شرق آسيا.

ينتمي سكان الجزر وشبه الجزيرة إلى الملايو-البولينيزيين، وهم أحفاد سلالة من جنوب الصين، هاجرت أولاً إلى تايوان، ثم إلى جنوب شرق آسيا وبولينيزيا[٧٣] وإلى أقصى الشرق حتى جزيرة إيستر، وربما أيضاً إلى أقصى الغرب حتى مدغشقر. وسكان بورما وتايلند وكمبوديا وفيتنام مزيج من الملايو-البولينيزيين وقبائل جاءت أصلاً من منطقة غرب الصين والتبت. ويمتلك الخمير في كمبوديا والمونيون[٧٤] في الأجزاء الجنوبية من بورما وتايلند لغة أوسترونيزية[٧٥]، في مقابل اللغات الصينية-التبتية السائدة بين البورميين والتايلنديين عموماً. لقد خبا التأكيد على تهنيد[٧٦] جنوب شرق آسيا من جانب المؤلفين الهنود والأوروبيين، من أمثال جورج كويدس George Coedes[٢٦] في البحوث الحالية، مفسحاً المجال للتأكيد على استقلالية المنطقة، كما في أعمال ولترز Wolters الموثوقة[٢٧]. فقد طورت الشعوب الأصلية بالمنطقة زراعة الأرز وأشغال البرونز والحديد وسمات ثقافية واجتماعية وسياسية متميّزة من قبل العصور التاريخية، وباستقلالية عن الهند والصين. وكانت هذه الشعوب بسبب موقعها المتوسط عرضة في العصور التاريخية لتأثيرات قوية من الحضارات الكبرى لجيرانهم الهنود والصينيين، لكنهم استوعبوها في أنماطهم الثقافية المميّزة. بل إن التأثيرات الهندوسية والبوذية لم تنتج ببساطة عن الهجرة أو الغزو الهنديين، وإنما سعت إليها الشعوب والحكام المحليون طوعاً.

---

(٧٣) بولينيزيا Polynesia منطقة فرعية من أوقيانوسيا Oceania تتشكل من أكثر من ألف جزيرة مبعثرة حول وسط المحيط الهادي وجنوبه، يشترك سكانها البولينيزيون في اللغة والثقافة والمعتقدات، من أهم جزرها ساموا Samoa وإيستر Easter وهاواي [المترجم].

(٧٤) المونيون أو المون Mon جماعة عرقية من بورما (ميانمار)، تعيش حالياً في ولاية مون البورمية بدلتا إيراوادي، كانت لهم دول في المنطقة على مر التاريخ [المترجم].

(٧٥) تنتشر عائلة اللغات الأوسترونيزية Austronesian بين جماعات متنوعة في جنوب شرق آسيا وأوقيانوسيا، في إندونيسيا وماليزيا والفلبين وبروناي ومدغشقر وبولونيزيا وغيرها [المترجم].

(٧٦) تهنيد idianization بمعنى إضفاء الطابع الهندي على الشيء أو اعتباره هندياً من حيث الثقافة والمنشأ [المترجم].

يعرف الكيان السياسي الأقدم في الظهور في السجل التاريخي للمنطقة باسم فونان Funan التي كانت تقع على الطرف الجنوبي لخليج سيام في منطقة تمتد الآن على جانبي الحدود بين كمبوديا وفيتنام. بعد أن سقطت إمبراطورية هان الصينية في العام ٢٢٠ بعد الميلاد، دخلت الصين الفترة المعروفة باسم "الممالك الثلاث" التي شملت دولة واي Wei في الشمال ودولة شو Shu في الجنوب الغربي ودولة وو Wu في الجنوب الشرقي[٢٨]. وكان الوصول إلى آسيا الوسطى والغرب من خلال ممر قانسو(٧٧) متاحاً لدولة واي فقط، فيما كان الطريق البري الآخر الممكن عبر الحدود بين بورما ويونان(٧٨) متاحاً لدولة شو فقط. وكما يوضح وانغ غونغوا Wang Gungwu، فقد كان الخيار الوحيد المتاح لحكام دولة وو إذا أرادوا التجارة مع الغرب هو عبر البحر من خلال موانئ جنوب شرق آسيا[٢٩].

كان الطريق التقليدي للتجارة البحرية بين الشرق والغرب في تلك الأزمان يقوم على نقل السلع والمسافرين بين السفن عبر برزخ كرا Kra الذي يمتد لخمسة وثلاثين ميلاً ويعد أضيق معبر في شبه جزيرة الملايو. أما البديل البحري الكامل عبر مضيق مالاكا Malacca أو مضيق سوندا Sunda، فلم يتطور إلا بعد قرن أو يزيد. وكان أقرب ميناء مناسب لدولة وو الصينية هو الموقع الذي يعرفه علماء الآثار باسم أوك إيو Oc Eo في مملكة فونان، لأن دلتا ميكونغ الخصبة التي يقع فيها الميناء كانت توفر إمدادات الأرز الضرورية للتجار وأطقم السفن في أثناء انتظارهم لنقل السلع بين السفن، وأيضاً لأنه يقع على الخليج المقابل للنقاط التي تُفرّغ فيها السفن الغربية والهندية المسافرين

(٧٧) ممر قانسو Kansu أو ممر خشى Hexi طريق تاريخي في مقاطعة قانسو الصينية، كان جزءاً من طريق الحرير الشمالي، يسير إلى الشمال الغربي من ضفة النهر الأصفر، وكان أهم طريق تجاري من شمال الصين إلى حوض تاريم وآسيا الوسطى [المترجم].

(٧٨) يونان Yunan إقليم بمقاطعة غوانغدونغ Guangdong الصينية الواقعة على بحر الصين الجنوبي [المترجم].

والسلع على البرزخ. وقد أرسل حاكم دولة وو سفارات لفتح التجارة والعلاقات الدبلوماسية مع دولة فونان الهمجية قبل منتصف القرن الثالث، ومعرفتنا بفونان برمتها يرجع الفضل فيها إلى سجلات مبعوثي دولة وو. ومن المؤكد أن "المكاسب العائدة من التجارة على الاقتصاد الصغير المنفتح" لدولة فونان كانت كبيرة ووفرت لها الموارد للتوسع الإقليمي حول حافة خليج سيام لتعزيز هيمنتها، وكذلك لأعمال الري الانتشاري التي رفعت إنتاجيتها الزراعية كثيراً. وبعد تطوير طريق المضايق، أصبح بمقدور السفن تجاوز فونان، ما تسبب في تراجع عائداتها، وسقوطها في النهاية أمام دولة الخمير المعروفة باسم تشينلا Chenla إبان القرن السادس.

وبعد التحول من المرور عبر برزخ كرا إلى مضيق مالاكا ومضيق سوندا المرتبطين بين جاوة وسومطرة، أصبح من الحتمي أن تنتقل السيطرة على الطريق الجديد إلى دولة تقع على إحدى هذه الجزر. وبداية من القرن السابع حتى القرن الحادي عشر، كانت هذه الدولة تقع في باليمبانغ Palembang على الساحل الجنوبي الشرقي لسومطرة وتُعرَف تاريخياً باسم سريفيجايا. ولكي تقوم سريفيجايا بدورها كإمبراطورية تجارية، كان لا بد لها من أن تؤّمن السيطرة على إمدادات الموارد الطبيعية بالمنطقة، لكي تفي باحتياجات التجار الصينيين والفرس والعرب، فضلاً عن إطعام التجار والأطقم في أثناء التوقف الطويل بين نوبات التحول في اتجاه الرياح. وقد نجحت في تحقيق الهدف الأول بإقامة شبكة علاقات عبر نظام تحالفات قائم على التبعية تدعمه القوة العسكرية، وذلك باستخدام قوات مرتزقة وقوات محلية، فضلاً عن أسطول غير حكومي، وإن كان فعالاً، من بدو الملايو البحريين. وكانت إمدادات الأرز تأتي عبر المضايق من المملكة الجاوية المتحالفة التي كانت تحكمها سلالة سيلندرا Sailendra. وبذلك تمكّنت دولة سريفيجايا من ممارسة درجة من السيطرة الاحتكارية على التجارة المنقولة بحراً بين

الغرب والصين، وهي تجارة كانت مربحة جداً إبان تلك القرون بسبب ازدهار إمبراطوريتي تانغ وسونغ من جهة، ودول الخلافة العربية في دمشق وبغداد والقاهرة من جهة أخرى. ومن خلال هذه العائدات، تمكّن حكام سريفيجايا من الاحتفاظ ببلاط على الطريقة الهندية ودعم مؤسسة دينية بوذية كبيرة.

وعلى كتلة اليابسة، بدأت تظهر دول جديدة مع منعطف الألفية أو بعدها بقليل، منها باغان Pagan في بورما، ودفارافاتي Dvaravati في تايلند، وأنغكور Angkor في كمبوديا، التي تأثرت جميعها بشدة بالبوذية والتأثيرات الثقافية الهندية الأخرى.

شرق آسيا (الصين وكوريا واليابان)[٧٩]

يمكن اعتبار الصين، كالهند تماماً، شبه قارة ضمن أوراسيا (انظر الشكل رقم ١,٧). فيحدها من الشرق المحيط الهادي، ومن الغرب السهول والصحاري وسلاسل جبال آسيا الوسطى، ومن الجنوب الغابات الاستوائية بجنوب شرق آسيا، ومن الشمال منطقة غير ملائمة للزراعة المستقرة كانت دائماً مجالاً للحضارة الصينية. وفرت الوديان الخصبة للنهر الأصفر ونهر اليانغستي القاعدة الزراعية لكل التطور اللاحق. فقد تميّز سهل شمال الصين بمنطقة النهر الأصفر برواسب طّفلية نقلتها الرياح، كونت "التربة الصفراء" التي وفرت موطن الأسلاف للحضارة الصينية المميّزة. وكانت أقدم دولةٍ هي سلالة شانغ Shang إبان النصف الثاني من الألفية الثانية قبل الميلاد، التي تميّزت بأسلحتها البرونزية ومراكبها الطقوسية وأقدم أبجدية صينية بالرموز المعروفة باسم

(٧٩) تتضمن مصادر هذا القسم Blunden and Elvin (1983, parts 1 and 2), Ebrey (1996, chapters 1-6), FitzGerald (1966), Gernet (1982, parts 1-5), Hall (1970, chapters 1-6), Huang (1990), Hucker (1975), O'Brien (2002), Pulleyblank (1955), Reischauer and Fairbank (1962, chapters 1-6, 10-11), Ropp (1990), and Twitchett (1973).

"عظام الوحي"[٨٠]. وأشغال المعادن البرونزية والعجلات الحربية لدولة شانغ تشبه نظيراتها الهندية-الأوروبية الواقعة إلى الغرب، لكن السؤال حول ما إذا كان ذلك إحدى حالات الانتشار الثقافي عبر سهول آسيا الوسطى أم تطوراً مستقلاً داخل الصين نفسها لا يزال سؤالاً مفتوحاً.

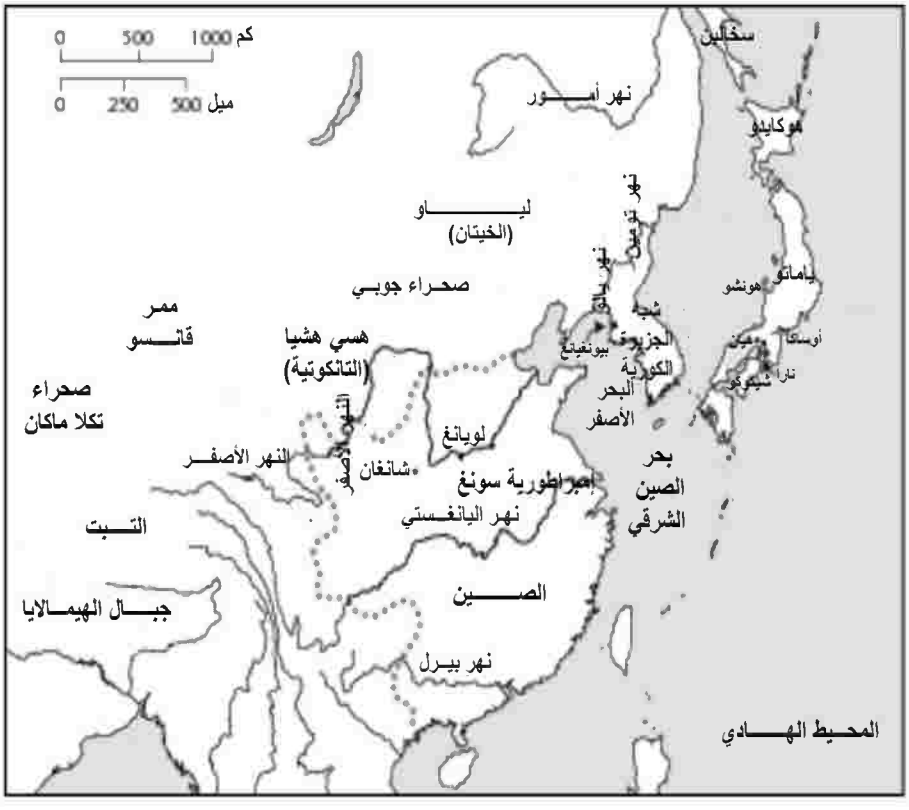

الشكل رقم (١,٧) شرق آسيا.

(٨٠) عظام الوحي oracle bones عبارة عن أجزاء من الأصداف والعظام، عادة من أكتاف الثيران وصُدْرات السلاحف، استخدمت في الصين القديمة فيما يسمى الكهانة الكتفية والكهانة الصدرية، إذ كان العرافون ينحتون على هذه الأصداف والعظام أسئلة للآلهة حول الطقس أو الحصاد أو حظوظ الأعمال العسكرية في المستقبل. تحمل هذه العظام والأصداف أقدم أبجدية صينية معروفة [المترجم].

وبعد انهيار دولة شانغ، ظهرت دولة تشو Zhou الشرقية البدوية التي أدخلت نظاماً أقل مركزية بكثير يوصف أحياناً بأنه نظام "إقطاعي". وأدت فترة طويلة من الانقسام إلى ظهور سبع ممالك إقليمية كبيرة تصارعت بقوة على السلطة في فترة "الدول المتحاربة" (٤٠٣-٢٢١ قبل الميلاد). وحدثت زيادة في الإنتاجية الزراعية، ارتبطت بإدخال الأدوات الحديدية، وولّدت عائدات أكبر للدول ودعمت جيوشاً أكبر، كانت تساندها قوات من الفرسان في محاكاة لطرق الحرب البدوية. ونشأت طبقة جديدة من الإداريين المحترفين والمتخصصين حلت محل طبقة النبلاء القائمة على القرابة، وغدت المعايير تستند إلى الجدارة والإنجاز. وشهدت تلك الفترة أيضاً تَبَلور خميرة ثقافية، نشأت خلالها الأنساق الفلسفية الصينية الرئيسة الثلاثة: الكونفوشية والطاوية والقانونية.

انتهت الصراعات الطويلة على السلطة في حقبة الدول المتحاربة بانتصار دولة تشين Ch'in الواقعة على الحدود الغربية في العام ٢٢١ قبل الميلاد الذي يسميه بود Bodde "أهم تاريخ على الإطلاق في التاريخ الصيني قبل إلغاء الملكية في العام ١٩١٢"[٣٠]. اتخذ حاكم هذه الدولة لقب شي هوانغ دي Shi Huang Di بمعنى الإمبراطور الأول وكان أول حاكم أوحد للبلاد كاملة. فرض الإمبراطور نظاماً مركزياً استبدادياً ولغة موحدة، وطُبقت بيروقراطية مدنية مدعومة بجيش قوي وقوانين وأوزان ومقاييس موحدة، تُعرَض نسخ طينية طبق الأصل منها في مقبرة الإمبراطور التي أعيد اكتشافها مؤخراً في شيان Xian. وشيّدت هذه الدولة أيضاً سور الصين العظيم ومتنته، فضلاً عن عدد من الأشغال العامة الهائلة الأخرى. وكانت الصرامة الممارسة على المجتمع مهولة لدرجة أن الإمبراطورية انهارت بعد فترة قصيرة من وفاة شي هوانغ دي في العام ٢١٠ قبل الميلاد.

استعيدت الوحدة الإمبراطورية سريعاً في العام ٢٠٦ قبل الميلاد في عهد سلالة هان التي أخذت الصين إلى مستوى من الإنجاز فاق نظيره في الإمبراطورية الرومانية المعاصرة في الغرب والإمبراطورية الماورية في الهند. وامتدت حدود الإمبراطورية إلى كوريا في الشمال وفيتنام في الجنوب، كما حققت اختراقاً عميقاً في آسيا الوسطى في الغرب. وأرست نظاماً بيروقراطياً كونفوشياً أكثر اعتدالاً بدلاً من النظام القانوني القاسي لإمبراطورية تشين قصيرة العمر، ثم عُدِل النظام كثيراً بالإقطاعات التي مُنِحت للحلفاء والأقارب. واتباعاً للدورة السلالية المألوفة التي ميّزت نمط التاريخ الصيني، فقدت إمبراطورية هان "تفويض السماء" في النهاية بعد ثورات الفلاحين والحرب الأهلية في العام ٢٢٠ بعد الميلاد.

أدى انهيار إمبراطورية هان إلى عدة قرون من الانقسام، فتصارع الجنرالات وأمراء الحرب على السلطة، وكان كثيرون منهم من أصول ترجع إلى بدو السهل. ثم أسست عشيرة تركية تدعى توبا Toba دولة واي Wei الشمالية (٣٨٦-٥٣٤) الواقعة في عاصمة هان القديمة لويانغ Lo-yang. حاولت هذه السلالة بناء دولة موحدة بالجمع بين الأرستقراطية التركية القبَلية المُتَصَيّنة والمؤسسات والأسر الصينية مالكة الأراضي، لكنها لم تصب نجاحاً طويلاً. فتحول الثقل السكاني من شمال وادي اليانغستي إلى جنوبه، حيث حاول الصينيون الهرب من ويلات الحرب الأهلية والاستفادة من وفرة أراضي الأرز الواسعة في الجنوب. ودخل الناس أيضاً في البوذية بأعداد كبيرة كملاذ روحي من الأخطار الدنيوية. وفي النهاية اكتملت الدورة السلالية، حين أسست سلالة من الجنرالات دولة سوي Sui المهمة، وإن ظل عمرها قصيراً (٥٨١-٦١٨)، وقد تمثل إنجازها الرئيس في بناء نظام القنوات الذي يربط وادي اليانغستي بالشمال. وكما أدى العهد القصير لدولة تشين إلى عهد دولة هان الطويل والمجيد، تلت دولة سوي مباشرة

إمبراطورية تانغ (٦١٨-٩٠٧) التي أخذت الصين إلى آفاق أرحب حتى مما شهدته الصين في عهد دولة هان.

تميّزت القرون الثلاثة لإمبراطورية تانغ بانتشار الثقافة والتأثير الصينيين إلى آسيا الوسطى وكوريا واليابان. ومع أن البيروقراطية كانت تقوم على نظام الجدارة بدرجة أكبر من ذي قبل، فقد جرى تفويض السلطة أيضاً إلى الأسر الأرستقراطية المحلية. وكان التوسع الاقتصادي كبيراً، مع انتشار اقتصاد نقدي قائم على الفضة ونمو نقابات التجار. وواصل مركز النمو الاقتصادي في التحول نحو الاقتصاد القائم على الأرز بالجنوب، مع زيادة الاعتماد على الأسواق والتجارة. وأصبحت الأساليب الفنية أكثر انفتاحاً على تأثيرات آسيا الوسطى، وازدهرت البوذية دينياً، مع انتقال مقادير كبيرة من الثروة في شكل أراض وغيرها إلى أيدي المؤسسات الرهبانية.

وإبان العقد الأوسط من القرن الثامن، ظهرت العلامات المألوفة للتراجع السلالي والصعوبات. وكما ذكرنا في موضع سابق، فقد هزم العرب جيشاً تابعاً لدولة تانغ في معركة نهر طلاس في العام ٧٥١، ما أدى إلى كبح سيطرة هذه الدولة الصينية على آسيا الوسطى، وتلا ذلك ثورة مدمرة بقيادة الجنرال آن لو شان An Lu Shan الذي ترجع أصوله إلى آسيا الوسطى، قُمِعت بشدة، وبتكلفة باهظة في الوقت عينه، ما أفقد السلالة الحاكمة هيبتها. وأدت الأزمات المالية إلى مصادرة أراضي المعابد وثرواتها. وبقيت هذه الدولة حتى العام ٩٠٧، وتبعتها فترة من النظم المتنافسة المعروفة باسم "الدول الخمس"، انتهت بتأسيس إمبراطورية سونغ Sung في العام ٩٦٠ وعاصمتها كايفنغ K'ai-feng.

كانت شبه الجزيرة الكورية إلى الجنوب الشرقي من نهري يالو Yalu وتومن Tumen اللذين يفصلانها عن منشوريا، تتمتع دائماً بهوية عرقية ولغوية متميّزة عن

الصين، على الرغم من آلاف السنين من التأثير الثقافي والسياسي من جارتها العملاقة. هاجر الشعب الكوري- على ما يبدو- إلى شبه الجزيرة الكورية من منشوريا إبان عصور ما قبل التاريخ، وكانوا يتحدثون لغة أورالية-ألطية[٨١] تربطها بعض الصلات باللغات التانكوتية[٨٢] التي تتحدثها بعض القبائل البدوية في شمال منشوريا. وطوروا اقتصاداً زراعياً مستقراً خلال العصرين الحجري القديم والبرونزي، وحكموا من خلال أرستقراطية قبَلية وراثية، كانت تعولها طبقة من الفلاحين وطبقة كبيرة من العبيد. وغزت دولة هان كوريا في العام ١٠٨ قبل الميلاد، وأدارتها عبر أربع قيادات أو مناطق عسكرية، كان أكبرها يقع في موقع قريب من بيونغ يانغ عاصمة دولة كوريا الشمالية الحالية. وتهاوت السيطرة السياسية الصينية بعد سقوط دولة هان، وظهرت ثلاث ممالك كورية مستقلة، هي كوغوريو Koguryo التي حكمت ما يعرف الآن بكوريا الشمالية وجنوب منشوريا، وباكشي Paekche في الجنوب الغربي، وسيلا Silla في الجنوب الشرقي، وكانت الأخيرتان تفصل بينهما السلسلة الجبلية التي تشكل العمود الفقري لشبه الجزيرة.

ازدهرت الممالك الثلاث بفضل التجارة النشطة مع كل من الصين والجزر اليابانية. ودخلت البوذية من الصين، وأصبحت الدين الشعبي بدلاً من الشامانية[٨٣] السابقة، التي بقيت في شكل أثري. وكانت الحكومة والإدارة تقومان على نماذج

---

(٨١) اللغات الأورالية- الألطية Ural-Altaic عائلة لغوية يفترض علماء اللغة أنها تضم اللغات الأورالية والألطية معاً [المترجم].

(٨٢) اللغات التانكوتية Tungusic عائلة لغوية تتحدثها الشعوب التانكوتية في سيبيريا الشرقية ومنشوريا [المترجم].

(٨٣) الشامانية Shamanism دين بدائي من أديان شمال آسيا وأوروبا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وبأن هذا العالم لا يستجيب إلا للشامان، وهم كهنة يستخدمون السحر لمعالجة المرضى وكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث [المترجم].

كونفوشية. وتبنى الكوريون رموز الكتابة الصينية ببعض الصعوبة لكتابة اللغة الكورية المختلفة كلياً. وتطورت الفنون الخزفية وغيرها بسبب التأثير الصيني، لكن بأسلوب محلي مميّز. وإبان أوائل القرن السابع، شنّ الحاكم الثاني بدولة سوي غزواً موسعاً لكوغوريو في محاولة لاستعادة السيطرة التي فقدت بعد سقوط دولة هان. جُوبه الغزو بمقاومة كورية شرسة عجلت بانهيار دولة سوي قصيرة العمر. ونفذت إمبراطورية تانغ محاولة غزو فاشلة أخرى، لكنها في النهاية نالت الاعتراف بالسيادة الصينية بعد غزو آخر بالتحالف مع دولة سيلا. وأخذت مملكة موحدة تحكم كامل البلاد في فلك التبعية لإمبراطورية تانغ من العام ٦٦٨ إلى العام ٩٣٥، حين أسقطتها دولة شمالية جديدة خلفت كوغوريو تعرف باسم كوريو Koryo التي اشتق منها الاسم الحالي للبلاد. واعترفت كوريو وكل النظم الكورية اللاحقة بالسيادة الصينية حتى العام ١٨٩٥، وهو العام الذي هُزمت فيه دولة مانشو تشينغ في الحروب الصينية–اليابانية.

تتكون اليابان من الجزر الرئيسة الأربع هوكايدو وهونشو وشيكوكو وكيوشو من الشمال إلى الجنوب، وتمتد من الساحل الشمالي الشرقي لليابسة الأوراسية، وتشكل نظيراً للجزر البريطانية على الساحل الشمالي الغربي لليابسة نفسها. لكن على خلاف الأخيرة، كانت اليابان أقل عرضة للغزو والهجرة إبان العصور التاريخية، وتتفرد في درجة عزلتها النسبية الطويلة عن النفوذ الأجنبي، مقارنة بالأمم الحديثة الكبرى الأخرى، ما أعطى تاريخها وتطورها مسحة خاصة، كما يقال كثيراً.

ونظراً لأن الطرف الشمالي لهوكايدو يقع على نفس خط العرض الذي تقع عليه مونتريال وأن الطرف الجنوبي لكيوشو أعلى قليلاً من الخط الذي تقع عليه جاكسونفايل Jacksonville بفلوريدا[٨٤] ويغمرها تيار اليابان الدافئ، فإن مناخها يتميّز

(٨٤) انظر الخريطة المثيرة في كتاب ريشوار وفيربانك (Reischauer and Fairbank, 1962, p. 453).

باعتدال نسبي بلا تطرف في برودة الشتاء أو حرارة الصيف. وأرض اليابان جبلية، وأقل من خمسها فقط صالح للزراعة. وقد عوضهم عن ذلك الخشب من الغابات الوفيرة والتنوع الثري في الأسماك من البحار المحيطة. وأدت التضاريس الجبلية أيضاً إلى تقسيم الأرض إلى وحدات صغيرة نسبياً قابلة للزراعة، ما جعل المركزية السياسية أمراً صعباً في إنجازه.

لا يزال التركيب العرقي للسكان الأوائل محل خلاف. لكن اللغة تنتمي إلى العائلة الأورالية–الألطية نفسها التي تنتمي إليها اللغة الكورية، ما يشير إلى أن أصول الشعب الياباني ترجع إلى شمال شرق آسيا. وقد تعرف علماء الآثار على ثقافة الجومون Jomon الممثّلة في أعمال الفخار "المصنوعة من الحبال" التي ترجع إلى السكان من جماعات الصيد والجمع قبل نحو عشرة آلاف عام من الميلاد. وبعد ذلك بفترة طويلة، وتحديداً في العام ٣٠٠ قبل الميلاد تقريباً، ظهر ما يعرف بثقافة يايوي Yayoi التي تميّزت بزراعة الأرز بالري وأشغال المعادن البرونزية والحديدية. وبدأت العلامات الأولى للتنظيم السياسي الطبقي مع ظهور تلال الدفن الكبيرة للنخبة الحاكمة والمحاربين الخيّالة. والتشابهات مع كوريا واضحة، لكن ليس من المعلوم يقيناً ما إذا كان الخيّالة غزاة من اليابسة الآسيوية، أم أن هذا النمط الحربي قد أدخله السكان المحليون أنفسهم من باب التكيف مع التأثيرات الخارجية. وكان المجتمع يتكون من طبقات وراثية تعرف باسم يوجي uji، لكل منها قائد يرتبط بروح سلالية معينة تعرف باسم كامي kami. وزعمت الطبقة الحاكمة في منطقة ياماتو Yamato في سهل نارا Nara بالقرب من أوساكا Osaka أنها سليلة إلهة الشمس أماتيراسو أوميكامي Amaterasu Omikami. وتنحدر السلالة الإمبراطورية الحالية باليابان مباشرة من هذه العشيرة التي ترجع بداياتها الأسطورية– بلا شك– إلى العام ٦٦٠ قبل الميلاد.

كان حكام ياماتو على اتصال وثيق مع الحضارة الصينية، في الغالب من خلال وساطة كوريا. بل يبدو حتى أن هناك جيباً يابانياً على الساحل الكوري الجنوبي. وثمة أدلة أيضاً على هجرة كورية كبيرة إلى اليابان في ذلك الوقت تقريباً. كان الوصول إلى أكثر التقنيات تقدماً يمنح ميّزة في الصراع التنافسي على السلطة في اليابان بين الطبقات الوراثية [اليوجي] المختلفة. وتعززت جاذبية الثقافة الصينية كثيراً بعد أن استعادت سلالتا سوي وتانغ الوحدة الإمبراطورية إبان أوائل القرن السابع. وشهدت القرون الثلاثة التالية استيعاباً هائلاً ومطولاً للتأثيرات الصينية في الدولة اليابانية الناشئة.

كان مؤسس برنامج التصيين ومهندسه هو ولي العهد الأمير شوتوكو Shotoku القريب من جهة أمه بالسوغا Soga، وهي عشيرة كبيرة من أصل كوري. فقد أعلن في العام ٦٠٤ دستوراً مكوناً من سبع عشرة مادة، تبنى التريبيتاكا[٨٥] البوذية والمبادئ الكونفوشية المختلفة المتعلقة بالولاء للدولة والإمبراطور وخدمتهما، فضلاً عن تجديد آخر رئيس وباق تمثل في تبني نظام التقويم الصيني. وأرسل شوتوكو أيضاً سلسلة من السفارات إلى عاصمة دولة سوي، ولاحقاً دولة تانغ، في تشانغان Chang'an، شملت كل منها عدة سفن ومئات الرجال، وعادت بنصوص كونفوشية بوذية ومنتجات أخرى من حضارة اليابسة الآسيوية. واستمرت السفارات لفترة طويلة بعد موته في العام ٦٢٢. ودرس كثير من اليابانيين الدين وأصول الحكم والفنون الأخرى في الصين قبل أن يعودوا بالمعرفة التي اكتسبوها إلى بلادهم. يذكّرنا ذلك بالانخراط الياباني مع الغرب بعد إعادة ميجي[٨٦] في العام ١٨٦٨. وشهد العام ٦٤٦ إصلاحات تايكا Taika

(٨٥) التريبيتاكا Tripitaka كلمة سانسكريتية تعني السِلال الثلاث، وهو المصطلح التقليدي الذي تستخدمه التقاليد البوذية لوصف شرائعها وأسفارها المقدسة [المترجم].

(٨٦) فترة ميجي أو إعادة ميجي Meiji Restoration فترة من تاريخ اليابان، تُعرَف أيضاً باسم الثورة أو التجديد، تمتد من العام ١٨٦٨ إلى العام ١٩١٢، شهدت اليابان خلالها سلسلة من الأحداث أعادت

التي تضمنت إصلاحاً شاملاً للحكومة اليابانية والنظام القانوني والإدارة على الطريقة الصينية.

أنشئت عاصمتان جديدتان، على غرار تشانغان، في نارا Nara من العام ٧١٠ إلى العام ٧٥٤، ولاحقاً في هييان Heian (كيوتو) من العام ٧٩٤، كانتا مركزين أشع منهما النظام الإمبراطوري الجديد. وفي المقابل، لم يكن من السهل تطعيم المبادئ الكونفوشية الموضوعية القائمة على الجدارة والأداء ضمن الواقع الياباني القائم على الولاءات الشخصية والإقليمية. وعلى نحو متزايد، أخذت الأشكال الخارجية للمنطق والكفاءة البيروقراطيين والإمبراطوريين الصينيين تتكامل مع الجوهر الياباني القائم على العلاقات المحلية والقبَلية. وأخيراً، أفسحت ثقافة هييان الحضرية المتقدمة الطريق للطابع الفظ لأمراء الحرب الإقليميين وشكلٍ ياباني من النظام الإقطاعي.

الحكم الإمبراطوري، ونُفذِت فيها تغييرات ضخمة في البنية السياسية والاجتماعية للبلاد، وكلمة "ميجي" تعني الحكومة المستنيرة [المترجم].